

الدكتور محمد رجب البيومي

بين الجارم وزكي مبارك

بقلم الدكتور محمد رجب البيومي

***

كنت اتحدث مع طلابي عن شعراء المنابر ، وامراء المحافل ، وعنادل البيان فذكرت امثال حافظ ابراهيم وشبلي الملاط ومحمد الاسمر وعلي الجارم ، وحين جاء ذكر الجارم قال أحد الطلاب ، انه قد سرق قصيدة ونسبها لنفسه ، فاستهولت ذلك وانكرته لان الرجل ذو مكانة ملحوظة ، ونفس طامحة تمنعه ان يرتكس في هذه النقيصة ، ولئن وقع التوارد مع غيره في معنى بيت او بيتين فهذا سبيل الشعراء منذ عرفوا الى اليوم ، ولكن الطالب أصر أنه قرأ ذلك في ديوان الشبلي ، اذ كتب محققه وهو استاذ جامعي ببغداد ما يشير الى ذلك ، فطلبت ان اقرأ بنفسي ما كتب ، وسرعان ما احضر تلميذي الديوان من غده ، وقد جاءت فيه هذه الابيات المشهورة ص ١٥٢ :

رب ورقاء هتوف في الضحى ... ذات شجو صدحت في فنن
ذكرت الفا ودهرا صالحا ... فبكت حزنا وهاجت حزني
فبكائي ربما ارقها ... وبكاها ربما ارقني
ولقد تشكو فما افهمها ... ولقد اشكو فما تفهمني
غير اني بالجوى أعرفها ... وهي ايضا بالجوى تعرفني

وقد قال المحقق في الهامش ان زكيا مباركا رواها في مصارع العشاق ص (٣٧ ، ٣٨) وأشار الى سرقة علي الجارم لها ... واذن فالنقد منقول عن زكي مبارك ، وقد اخطأ المحقق حين جعل اسم كتابه « مصارع العشاق » فاسمه « مدامع العشاق » اما المصارع فلمصنف آخر ، فلم أر بدا من الرجوع الى « مدامع العشاق » ، فرأيت المبارك يذكر الابيات ثم يعقب عليها بقوله ص (٣٨) « وهذه الابيات من أحسن الشعر تقسيما ، وابرعه تصويرا ، وقد افتتح بها الشيخ علي الجارم خطبته في تأبين المرحوم الشيخ حمزة فتح الله ، فخرج الناس وهم يقدمونه على سائر الشعراء ، ظنا منهم انها له ولولا الجهل بتاريخ الآداب العربية ما عاش الاحياء على حساب الاموات من حيث لا يشعر الناس » .

وواضح من هذا القول ، ان الجارم قد القى كلمة نثرية في تأبين الشيخ حمزة فتح الله افتتحها بهذه الابيات كعادة غيره من الخطباء في القديم والحديث ، ولم يقل انها من أبياته ، كما لم يعقل في منطق أحد ان يضمها الى جزء من اجزاء ديوانه الشعري ، اما الذين خرجوا يزعمون انها للجارم فهم لا محالة طلاب مبتدئون ، وقد كان حفني ناصف ومحمد عبد المطلب من زملاء الجارم في منصة التأبين كما كان من بين الحضور احمد الاسكندري ومحمد المهدي وسيد بن علي المرصفي ، وكل من هؤلاء الخمسة راوية اديب وباحث ضليع ، لا تكاد تفوته قافية مهجورة فكيف بأبيات مشهورة ؟ أكان من الممكن ان يظن احد من هؤلاء ان الابيات للجارم ، مع انهم يعلمون سنة افتتاح الخطب بالابيات في القديم والحديث ، والعهد قريب بعبد الله فكري والمويلحي وتوفيق البكري ممن لا تخلو رسائلهم النثرية من الافتتاح بأبيات ، بل ان زعيم التجديد في الادب المصري الدكتور طه حسين لم ير مانعا من ارتياد هذا المسلك ، اذ بدأ تأبينه لمصطفى عبد الرازق رحمه الله بأبيات ابي نواس في الامين :

طوى الموت ما بيني وبين محمد ... وليس لما تطوى المنية ناشر

كما بدأ تأبينه لنابغة الادب والخلق الآنسة مي **بقول ذي الرمة :**

ألما بمي قبل ان تطرح النوى ... بنا مطرحا او قول بين يزيلها
فالا يكن الا تعلل ساعة ... قليلا فاني نافع لي قليلها

وغير مصطفى وغير مي وغير طه حسين من كبار المجددين لم يجدوا حرجا من حلاوة الاستشهاد بما يهز المسامع ويحرك الاحاسيس في مطالع القول ومبادىء الكلام ؟ فكيف جاز لصاحب « مدامع العشاق » ان يتهجم بما لا يليق !... لقد كنت أظن ان زكيا الشاب قد اندفع متسرعا دون ان يثبت على اندفاعه بعد التعقل الرزين ، ولكني وجدته يقول في آخر اثر ادبي اصدره وهو ديوان « الحان الخلود » ص ١١٨ ما نصه : « ان غضب هذا الطفل ـ يريد الجارم رحمهما الله ـ يرجع الى سنة ١٩٢٤ حين صدرت الطبعة الاولى من كتاب « مدامع العشاق » ، وفيه فضيحة لسرقة ادبية نهبها من الشاعر **الذي قال :**

رب ورقاء هتوف في الضحى ... ذات شجو صدحت في فنن

وخلاصة القصة انه وقف يرثي الشيخ حمزة فتح الله ، فأخذ يتبختر ، وهو ينشد هذه الابيات فظنها

الجمهور من مبتدعات « المتخطر » الجميل ، وكان الجارم جميلا في صباه الى أبعد حدود الجمال ، على صباه ألف رحمة وألف سلام » .

واذن فالدكتور لا يزال يصر على ان الجارم سرق ولم يستشهد ، ولو ظن ذلك دعي واغل لعذرناه فكيف بمبارك الناقد الحصيف ؟ ، وقد طاب لي ان ارصد امواج الرضا والغضب بين زكي مبارك والجارم معتمدا على ما قرأته لمبارك وحده ، لان الدكتور لم يكن يخفي شيئا من انفعالاته الوقتية بل يسارع الى تسجيلها في حديثه ذي الشجون، وطبيعي ان تتعارض هذه الانفعالات او تتناقض ما دامت وحي الساعة فحسب ، وليس الامر في ذلك امر الجارم وحده مع المبارك ولكنه امر اكثر من تحدث عنهم الدكتور ، ومحاولة الرصد الدائب لكل ما كتب الرجل المكثار متعذرة متعسرة ، لا سيما امام من يبتعد الآن عن صحف مصر ودورياتها القديمة مكتفيا بما علق بالذاكرة وببعض مؤلفات الدكتور لا كلها اذ ليست جميعها تحت يده ، وفي الجزء ما يغني عن الكل في بعض الاحايين .

كان من حظ الدكتور مبارك ان ابعد عن التدريس بكلية الآداب تنفيذا لمشيئة الدكتور طه حسين ، فقامت ضجة في دوائر الادب والعلم والتربية ، ووجه الاستاذ ابراهيم المازني كلاما شديد اللهجة للدكتور طه ، ثم رئي ان يكون الدكتور مبارك مفتشا للغة العربية بوزارة المعارف ليجد سبيل العيش عن طريق التفتيش ، والدكتور في نفسه فخور تياه ، يرى ان وزارة المعارف بأجمعها دون مستواه ويناقش وزيرها في جريدة « البلاغ » مناقشة النظير للنظير ، وقد وجد التفتيش بها حينئذ يسيطر عليه ثلاثة رجال كبار ، هم الاستاذ احمد العوامري والاستاذ محمد احمد جاد المولى والاستاذ علي الجارم وهم أساطين اللغة العربية في الوزارة ومنهم من أحيل الى المعاش ولكن له جاهه وسمعته ونفوذه الشخصي أما الاستاذ العوامري ففي درجة اساتذة زكي مبارك سنا ومكانة ، وهو عالم لغوي تربوي يقصر بحوثه على ناحية خاصة لا يتعداها ، وليس ممن تسلط عليهم اضواء الصحافة في دنيا الادب والتأليف ، فهو بالنسبة لمبارك رجل مأمون ، وقد كان الدكتور زكي يجله ويحترمه حتى بعد احالته الى المعاش، وكثيرا ما تصدى العوامري للتعقيب عليه في مجلة « الرسالة » بامضاء (أ. ع) فكان مبارك يهش لنقده واذكر انه قال في بعض ردوده : اني لو ضمنت ان يعقب الاستاذ الكبير (أ. ع) على كل ما أكتب لتعمدت الخطأ لاظفر بتوجيهه ، واما الاستاذ محمد احمد جاد المولى فهو استاذ حقيقي لمبارك ، كان أحد الذين تولوا نقاشه في رسالة الدكتوراه بالجامعة وكان هو والدكتور منصور فهمي وعبد الوهاب النجار ممن تناولوا الرسالة بالتعديل والنقد وكانت تتحدث عن « اخلاق الغزالي » ، فمكانة زكي منه مكانة التلميذ المتواضع ، حتى انه لم يجد غيره مقدما لكتابه « التصرف الاسلامي » اذ كتب الاستاذ جاد المولى مقدمة جيدة وازن فيها بين أمس الدكتور ويومه ، ورعاه بعطف كثير ، وحب ودود ، وجاد المولى استاذ متواضع كالعوامري لا يميل الى صخب الاضواء ايضا ، فلم يبق الا شاعر العصر ، واديب المصر علي الجارم ، وهو انسان طموح سباق ، وله شهرة ودوي ، وتيه فخور ، فهو اذن منافس المبارك وغريمه ، يعترف بذلك زكي ويردده ، اما الجارم فهو في نفسه اكبر من صاحبه ، هو المفتش الاول رسميا بل كبير المفتشين بالتعبير الحديث ، ومبارك مفتش فقط ، وهو عند نفسه خليفة شوقي الذي يقول مخاطبا بلدته « رشيد » :

ولكم هززت (1) فتاك حين حملته	**كالام تلهي الطفل حين ينام**
غنى لك القلم الذي أرهفته	**أرأيت كيف تفرد الاقلام**
هذا وليدك جاء ينشد شعره	**ما كل ما تحوي الخيوط نظام**
أصغى له الوادي وغنت باسمه	**بغداد واهتزت اليه الشام**
ان قال مال له الوجود برأسه	**ورنت له الاسماع والافهام**
ملك العصي من القريض بسحره	**طوعا فما استعصى عليه نظام**

واذن فمن يكون المبارك جوار من أصغت له مصر والسودان وغنت باسمه بغداد ، واهتزت اليه الشام ، فاذا قال مال له الوجود برأسه ورنت له الافهام والاسماع!؟ ان الدكتور زكي يقول عن نفسه اكثر مما يقول الجارم ، وقارىء مبارك لا يحتاج الى استشهاد ، فانظر كيف تقابل الخصمان في دائرة واحدة ، واحدهما في نفسه مفتش اول بل كبير المفتشين ينظر الى مفتش فقط ، واحدهما الآخر في نفسه اكبر من الوزير ، لا بد ان تتولد الحزازات الصامتة ثم تترجم الى مواقف عملية يتحدث المبارك عن بعضها فيقول نقلا عن ديوان « الحان الخلود » ص ١١٩ :

« في سنة ١٩٣٧ صدر قرار من زكي العرابي باشا بتعييني مفتشا للمدارس الاجنبية بالمملكة المصرية ، وكان الجارم كبير المفتشين فضاق صدره على الطريقة النسائية، ولم يهنئني بالمنصب ولا هنأني صفيه المفتش مصطفى امين .

مضيت في تفتيش المدارس دون ان التفت اليه فالدكاترة زكي مبارك لا يلتفتون الى صغار الخلائق ، وشاءت له « اخلاقه العالية » ان يوحي بأن أكتب تقارير يستطيع بها عزل بعض المدرسين ، فوقفت في وجهه وقفة مخيفة ، وقلت انني السناد لمن أفتش عليهم من المدرسين ، ولن أسمح لك بايذاء » .

واذن فقد كان النفور قائما بالفعل ، ومن الحق ان نقول ان الدكتور مبارك كان يعمل على تأريث الشقاق بما يذيع ويكتب ، فهو في ليلى المريضة يهاجمه مرة ويمدحه اخرى ، بل ينقل على صدر الكتاب عبارة له قالها في تقريظ المبارك ، ثم لا يمنعه ذلك من ان يطيل لسانه

١ ــ الضمير في هذا البيت يعود الى نخل رشيد .

بحديث لا يتحمله الجارم وهو كبير المفتشين ولا بد ان يتوسط الزملاء ـ وهم أجلاء من ذوي الفضل ـ فيثوب الجواد بعد الجماح ، بل ينقلب الى التأييد والاطراء .

زار الجارم بغداد مندوبا عن مجمع اللغة العربية في المؤتمر الطبي فألقى قصيدة رنانة هي من خير ما قيل في بغداد ، وقد ابتدأها الجارم الصناج بقوله :

بغداد يا بلد الرشيد	ومنارة المجد التليد
يا بسمة لما تزل	زهراء في ثغر الخلود
يا موطن الحب المقيم	ومضرب المثل الشرود
يا راية الاسلام	والاسلام خفاق البنود
يا مغرب الامل القديم	ومشرق الامل الجديد
يا جنة الاحلام طال	بقومنا عهد الرقود
يا بهرة الملك الفسيح	وصخرة الملك الوطيد
يا زورة تحي المنى	ان كنت صادقة فعودي

وقد قام لها الحفل وقعد ، وكان زكي مبارك بين المستمعين فأخذ يصفق ويستعيد كما قال ذلك الاستاذ عبد المنعم خلاف بمجلة « الرسالة » ، وهو شعور صادق يدل على مهادنة واغضاء .

ولكن الجلسات الخاصة بين المفتشين لم تمنع الدكتور من التطاول على الشاعر الكبير ، فقد قال في بعض جلساته للاستاذ سامي عاشور ، ان الجارم بخيل بخيل ولم يشرح كتاب « البخلاء » للجاحظ الا لانه يوافق مشربه ، ويجري على هواه ، ونقل الاستاذ سامي الحديث للجارم فتحدى مستهزئا ووعد بمأدبة تقام للمفتشين في رشيد لتكون ردا على افتراء مبارك ، ومضت الايام دون جدوى ، فانتهز المبارك ابطاء الجارم وداعبه بأبيات ثقيلة تصور بخله ، وقد نشرها « بالرسالة » ، فكانت موضع التندر بين الزملاء ، وطبيعي انها لن تقابل من الجارم بالارتياح . ثم ذهب الجارم الى العراق لرثاء الملك غازي في حفلة التأبين الكبرى ممثلا لوزارة المعارف وذهب المبارك بدعوة شخصية ، فحرص الجارم على استرضاء زكي مبارك وسأل عنه في الفندق مرات ، وقد أرضى ذلك كبرياء الدكتور ، فهش للقائه وتحدث باعجاب عن مرثية الجارم لغازي ، وكان مما قال واصفا حفل التأبين الكبير نقلا عن ص ٢٤٦ من كتاب « الاسمار والاحاديث » :

« اما الذين ملكوا ألباب الناس في ذلك اليوم فهم ثلاثة ، أولهم علي الجارم ، وثانيهم بدوي الجبل ، وثالثهم شبلي ملاط ، وذلك لا يمنع من الاعتراف بالاعجاب الذي ظفرت به قصيدة الاستاذ محمد الشريقي ، وقصيدة فؤاد باشا الخطيب ، وقد كثرت اقاويل الناس في بغداد حول مراكز الخطباء والشعراء ، ولكنهم اتفقوا على ان الجارم اول شاعر ماجت لشعره القلوب في ذلك اليوم حتى صح للاستاذ طه الراوي ان يقول : ان الجارم خليق بكلمة ابن رشيق حين قال : ثم جاء المتنبي فملأ الدنيا وشغل الناس ، وما أقول ان الجارم اكبر الشعراء في هذا الزمان ، ولكن لا جدال في انه صناجة العرب في هذه الايام ، فهو ينشد الشعر انشادا يفيض بالعذوبة والرنين ، ولو سجل الحاكي بعض أناشيده لكانت نماذج من التطريب الجميل » .

وفي الاسمار والاحاديث طرائف جيدة عن الجارم وطموحه الى الزعامة الشعرية بعد شوقي ، وحسرته على فقد نجله الطالب الجامعي التي فجرت ينابيع الرثاء الحي في صدر الوالد الملتاع وكل ذلك قد سجله الدكتور بروح الود الخالص ، وكان بعد ذلك من المنتظر ان تصفو المودة بين الرجلين ، ولكن هيهات ! لقد انتقل الجارم من وزارة المعارف الى دار العلوم نائبا للعميد ، ولكن المنافسة الادبية بقيت بعد المنافسة التفتيشية ، فأخذ مبارك يناوش الرجل في حديثه ذي الشجون ، أما الجارم فيقول الدكتور انه يغتابه كثيرا وينقل له السامعون كل ما يقال، ولمبارك عن الجارم طرائف لاذعة من أهمها ما جاء بديوان « الحان الخلود » من مثل قوله ص ١١٩ : « كان الجارم ينتدب للاشراف على الامتحان النهائي لطلبة دار العلوم ، فكان الطلبة يعرفون طبيعته الجديرة بالاستغفال » .

كان يسأل : ماذا حفظت يا شاطر ؟

فيقول الطالب : حفظنا المعلقات السبع .

فيقول الجارم : شبعنا من هذا فأنشدنا شعرا جديدا ؟

فيقول الطالب : قال صناجة العرب وامام الادب حضرة صاحب العزة علي الجارم بك امام الشعراء :

مالي فتنت بلحظك الفتاك ... وسلوت كل مليحة الاك

وبهذا نعرف قيمة الجارم في الالقاب التي منحها له ابناء دار العلوم (٢) ثم يشتط المبارك فيعلن ان الجارم ينافسه في الشعر ، وانه ـ اي المبارك ـ يتفوق عليه بحيث لا يقاس به ، ويذكر ان جريدة « المصري » طلبت منه قصيدة بمناسبة انتهاء الحرب الكونية لتكون منافسة لقصيدة الجارم التي ستظهر بالاهرام ويقول في صراحة « ان الجارم سيقتل نفسه بالقصيدة التي تظهر غدا في جريدة الاهرام (يعني اول أيام السلام) وقد نصحته الف مرة فما انتصح ، نصحته برفق فلم يسمع ، مع ان صوتي يسمع من في القبور قلت له : يا جارم بل انت تفتعل الشعر ، والشعر لا يجوز فيه الافتعال (٣) » . وقد قرأ الناس قصيدة الجارم أولا بالاهرام ، وقرأوا قصيدة مبارك بعدها بالمصري وما شعروا أن بين الشاعرين منافسة ، الا حين تحدث المبارك عن ذلك ، وارجح ان الجارم كان خالي الذهن من منافسة مبارك اياه ، اذ هو يطمح الى مساماة شوقي وما كان يعنيه سواه .

هذه شجون متناثرة عن الرجلين ، اوحى بها سؤال في محاضرة ، وما اريد أن اتحيف احدهما ، بل اريد ان ارسل الضوء على علاقة كانت تصفو وتكدر على فترات ، ومتى خلصت علائق الناس من الشائبات ، حتى تكون علاقة المبارك بالجارم فريدة المثال !.

الرياض ـ كلية اللغة العربية **محمد رجب البيومي**

٢ ـ في الاصل في الالقاب التي منحها لابناء دار العلوم ، وهي عبارة محرفة اذ لا مدلول لها يطابق السياق .

٣ ـ الحان الخلود ص ١٠٧ .

الى طـه حسين

رفيق ابي العلاء ، اليك مني ... سلاما ، كاليقين المطمئن
قبست من الظلام هدى ونورا ... وصنت الفكر من عبث وجبن
عصفت بكل وهم كان سدا ... بوجه الباحث الحذق المفن
جلوت غياهبا للجهل كانت ... تنوء بها مناكب كل متن
وقلت الحق ، لا ملكا تداري ... ولا غوغاء تسترضي ، لتبني
كذا العقل الكبير يكون طودا ... يفوق مدى التطاول والتجني
كمثل النيل كنت قريب قرن ... عطاء مرسلا من غير من

رهين محابس « الايام » عفوا ... لما يبدو من الالحاح مني :
رفيقك ظل كل العمر يشكو ... ويحرم نفسه حتى التمني
يفرج همه بالهزء حينا (١) ... وحينا بالمشقة والتعني(٢)
اذا ما جئت سدرته فسله ... سؤال العارفين ، بغير ظن :
ترى لو كان مثلك ، قد حبته ... يد القدر الرحيم ملاك يمن
يقود خطاه في رفق وحب ... وكل خلية منه بعين
يشجعه ، يجدده ، يؤاسي ... جراح الروح ، حينا بعد حين
يعوده تناول طيبات ... تجاوز أكلتي عدس وتين
يجنبه مواقف لا يراها ... جديرات بفلسفة وفن
ترى ماذا تكون الحال ؟ اني ... حدست بما تكون ، فلا تجبني

مناضل جيلنا الفكري ، هذا ... صدى العرفان ، لا اظهار حزن
فمثلك فوق تأبين وندب ... ومثلك لا يموت برغم دفن
ومن يبدع كما ابدعت باق ... بقاء الفكر ، لا يفنى ، ويفني
دهورا ليس يحصيها حساب ... ولا خطرت برؤيا او بظن
ألم يطو المعري ألف عام ... وهذا فكره ينمو ويغنى ؟
وصوتك ، يوم ذكرى الالف يملأ ... دمشق ، فما يزال بكل اذن(٣)
وددت لو الزمان يبيح سرا ... ويأخذ ما يشاء لقاه مني
فأعرف ، بعد ألف ، من سيحيي ... لنا ذكرى العميد ، بكل لسن
أفوق الارض سوف يتم هذا ... أم المريخ ، أم في أي اين
رفيق الخالدين ، سألت عذرا ... فقد جاوزت حدي في التمني
لاني قد طمعت بكشف غيب ... فعفوا يا عليم الغيب ، عني

---

(١) اشارة الى رسالة الغفران (٢) اشارة الى ديوان « اللزوميات »
(٣) اشارة الى خطبة طه حسين في دمشق يوم احياء الذكرى الالفية للمعري .

دمشق ... سعيد ابو الحسن

الوهم والحقيقة

بقلم حسني سيد لبيب

تسكع في شوارع القاهرة، وقلبه يزغرد بفرحة صبيانية لا يستطيع تكتمها . ود لو يتحدث مع احد السابلة ويبوح له بسر سعادته . فلاول مرة يمتلك ثروة مالية كبيرة، زارت جيبه فجأة، وعلى غيرانتظار. ورقة ذات العشرة جنيهات تقبع في جيب جلبابه العلوي الصغير . أحس مرزوق ان الجيب يكادينتفخ، فالحمل الذي ينوء بهأكبر من طاقته، تلك الطاقة التي تنحصر في حدود القروش القليلة ، او شلنات لا تكاد تتعدى الثلاثة الا لماما . عشرة جنيهات دفعة واحدة ، يا لها من ورقة !.. كم شلنا تساوي ؟.أجهد ذاكرته ومرنها على عملية حسابية، فأحس للوهلة الاولى انالرقمالناتج سيكون كبيرا .. انه مائتا شلن ، يا للرقم !.. انه اجر اكثر منشهرين.

أمعن النظر في معروضات المحال الكبيرة . الفى قميصا نصف كم .لم يتعرف على نوع القماش ، خمن انه حرير طبيعي . انه يشبه قميص الحاج فهيم . اجهد مخيلته في تصور هيئته حين يرتديه ، سيكون انيقا جدا ، ولكن يجب ان يغتسل جيدا قبل ان يرتديه ، حتى تبدو عليه سيماء الوجاهة والاناقة . ستندهش حمدية حين تراه ، لاشك انها ستخطئه ، ولن تصدق انه مرزوق زوجها . وقد تعتقد انه شبيه له ، او قد يصور لها خيالها المريض انه من افعال الجان ، حتى تفي بالنذر الذي قطعته على نفسها!

ولكن ، أيصح ان يتطاول على الحاج فهيم ويرتدي مثله ؟. أيكون ندا له ؟.. بوده لو يكون ، لكنه يدرك ان هذا مستحيل ، وانه لن يكون .

تراجع عن شراء القميص . ابتعد خطوات عديدة عن واجهة المحل ، وتنازل عن الفكرة الطارئة تماما ، ثم سار في طريقه لا يلوي على شيء. بادرة ضيق تنتابه ، الا ان السعادة تغمره وتطغى على ضيقه، وتعم كيانه فرحة جنونية انسته ما كان يفكر فيه منذ لحظات . ثم راودت مخيلته احلام كثيرة ، ود لو يشاركه فيها احد .

لقد زارت جيبه اليوم ثروة لم يعمل لهاحسابا . لا بد اذن انيتغير! وان يغير من عادته !.. فليس من المناسب ان يسير على قدميه من « السيدة زينب» الى حيث تقبع حجرته المظلمة في زقاق ضيق بحي « القللي ».. لقد تعود على المشي حتى كلت قدماه . وكثيرا ما كان ينتابه شعور بالملل وهو سائر أمام المحلات والمنازل الضخمة .

تمرق سيارات الاجرة بجانبه كالسهام . هم ان يوقف احداها ، سيدفع مبلغا محترما ، لن يؤثر هذا المبلغ على ما في جيبه . تصور ما سيحدثه قدومه في سيارة اجرة من مفاجأة لا يتوقعها ساكنو الزقاق الضيق ، سيتطلع اليه الجميع ، وسيتساءلون .. الا انه اكتأب حين ادرك ان السائق قد يرفض دخول الزقاق الضيق .. معذور ، فيبدو انه اذا دخل ، لن يستطيع الخروج بسهولة ، فالزقاق لا يسمح بمرور السيارة الا اذا احتك جانباها بجدران البيوت القديمة ، وقد يتسبب هذا الاحتكاك في انهيار احد الجدران ، ويحدث ما لا تحمدعقباه!

اما زوجه حمدية ، فستهلل له، وستسأل أسئلة كثيرة، ومن الافضل ألا يجيب حتىيدعهاغارقة فيفضولها ودهشتها.

هم فعلا بايقاف احدى سيارات الاجرة ، الا ان السيارة تجاوزته ولم تعره ادنى انتباه.اكتأب مرزوق، ربما لميلتفت اليه السائق ، او انه لم يحسن تقديره . عليه اذن انيبرز العشرة جنيهات !.. فجلبابه الرث ليس عاملا مشجعا ، ولن يثير انتباه السائقين . تنازل عن الفكرة التي تشبث بها كطفل، خشية انتتجاوزه سيارة اخرى ، وعاود مسيرته المعتادة .

لمح سيارة ركاب مزدحمة فقفز على سلمها . اخلى له أحد الواقفين على السلم موطئا لقدم واحدة. ثبت قدمه اليسرى وامسك العمود الحديدي بقوة خشيةان تزل قدمه. لم يمكنه الزحام من الوصول الى داخل العربة ، فقنع بوقفته . تملى في الوجوه التي تكاد تلتصق به .كان يمعن النظر في وجوه الناس . التفت اليه راكب زاعقا :

– حاسب يا اخينا . لا تلتصق هكذا . أف .. الدنيا حر .

راكب اخر ينهره :

– ابعد ذراعك . يحلو لكم التحشير في هذا الزحام !.. فرصة!

كان على وشك الصراخ ، لكن صرخاته لم تكد تخرج من حلقه فاحتبست في أعماقه ، تصخب في جوانب نفسه وتؤلمها . ود لو يصفع هذين الراكبين الصفيقين . وكانت هي الاخرى رغبة مكبوتة ، سرعان ما طواها ، وقبع في مكانه صامتا. عيون كثيرة بدأت تنظر اليه شزرا. أمعنت التحديق ، أحس معنى هذه النظرات وفهمها جيدا .. انها تعني الشك والارتياب . انه متهم . النظرات تحاصره من جميع الجهات، انها قضبان حديدية تحصرهفي منطقة مظلمة من قاع سجن رهيب . ود لو

قصة

يخرج الورقة المالية الكبيرة ، ليبرىء نفسه . انها دليل قاطع . ولكن !.. أيمكن لاحد ان يصدق ؟. ان سائق التاكسي لم يصدق ، وتجاوزه ، ولم يشأ ان يلقي عليه نظرة ما ، كـأنه لا يراه !.

وفجأة ، سيطر عليه ظن بـأن الورقة المالية قد نشلت . هبط على الفور عند اول محطة . وضع يده في جيبه فوجد الورقة المالية ما تـزال قابعة في مكانها المتواضع . اطمأن ، تشبث بها كطفل ، خشية ان تتجاوزه وقنع بالمسيرة المعتادة كأفضل وسيلة للوصول الى حجرته المظلمة .

طالعه وجه حمدية الاسمر . قالت له على الفور :

ـ تتغدى ؟.

ـ ليس الان ، اريد كوب شاي .

تعجبت لحاله ، فما اعتادت منه ذلك ، فما ان يدخل الحجرة حتى يزعق طالبا الطعام . فما الـذي غيره ؟.. سألته مستفسرة :

ـ تغديت ؟.

ـ لا ...

صمتت قليلا ، ثم قعدت القرفصاء واشعلت موقد الجاز فاندلعت ألسنة اللهب عالية ، وامتلأت الحجرة بدخان خانق . سعل مرزوق مرات متتالية ، ثم قال في ضيق :

ـ متى نستريح من هذا الهباب ؟

ـ شد حيلك ، واشتر « بوتاجاز »

انها لا تطمع في البوتاجاز ولا تمني نفسها به ، وانما تدعو الله ان يهبها من الرزق ما يكفي ضرورات الحياة . ولا تطمع في شيء الا قوت يومهـا ، وقرشا يستطيعان ادخاره لمستقبل الايام . امسكت مقبض المكبـس وضغطته عدة مرات . وكانت قطرات العرق تبلل صدرها الاسمر المكتنز . راقبها مرزوق فأدرك مدى العبء الذي تنوء به ، وود لو يستطيـع فعل شيء . جالت بخاطـره فكـرة طارئة ، وهي شراء « بوتاجاز » !.. ستفرح حمدية . لا يجدر به ان يبوح بهذه المفاجأة ، عليه ان يتكتم الامر ، حتى يشتريه ، فما اجمل المفاجآت السارة !.

قالت له حمدية وهي تضع براد الشاي على الموقد :

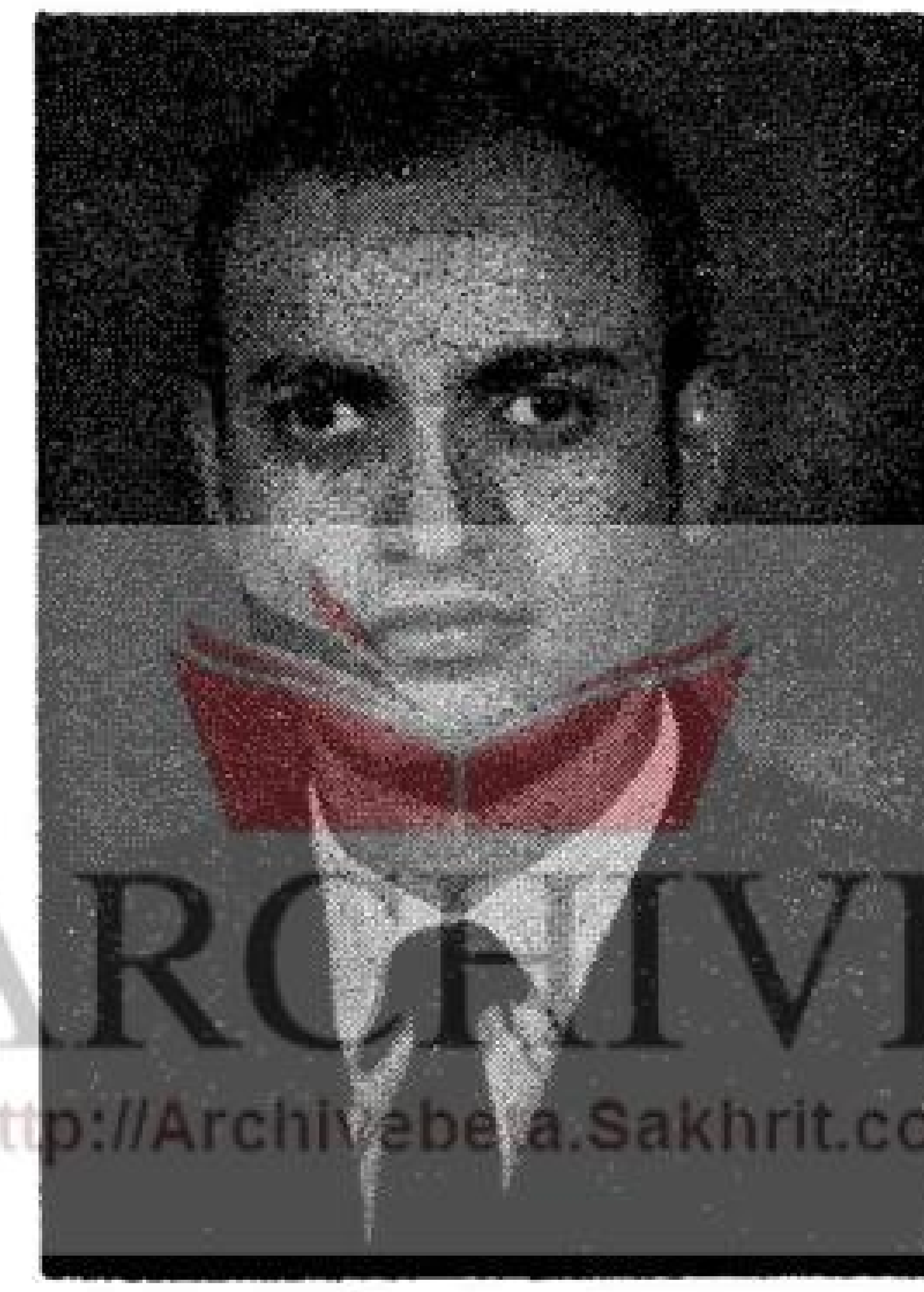
ـ اقترضت بريزة من ام علي .. الخضار كان غاليا اليوم .

ـ سأفك واعطيك البريزة .

تنهدت مندهشة :

ـ تفك !.. من يسمع كلامك يظن ان معك ورقة بعشرة جنيهات !.

لم يشأ مصارحتها بما يمـلك ، وآثر الصمـت . فستسأله عـن



حسني سيد لبيب

★

مصدرها ، وستشك فيما يقول ، ثم تقترح عليه ـ في النهاية ـ ان يدخرها للمستقبل .

ارتشف الشـاي في صـمت . واسترجع في خاطره ما حدث ، وكيف زارت هذه الورقة الجميلة جيبه ...

فقد توجه الى بيت الحاج فهيم حاملا لفافة كبيرة بها لحم . اخـذ ينهب الطريق مسرعا ، فقد طلـب منه الحاج الاسراع في الحضور بعـد العصر ، حتى يقـوم بتفريغ عربات القطن الضخمة التي ستصل مـن محلج القطن بطنطا . كما انه خشي تلف الورقة حيث كان الدم ينز منها . وكان الجو حارا ، والعرق يتصبب غزيرا من جبهته وتصل قطرات منه الى جفنه العلوي فيحس بثقلهـا ، الا ان احساسا جميلا ينسيه كـل هذه المضايقات . فالست هنـاء لا تبخل عليه بشيء ، تقدم لـه الطعام وما أشباه !. وتمد له يدهـا بالنقود ، علاوة على منحها ايـاه بعض الملابس التي يستغني عنهـا الحاج . لهذا كله كانت الرحلة جميلة ومرغوبة . وفي لحظات شروده تذكر ان اليوم هو عيد ميلادها ، لا يعرف كم عاما مضى على ميلادها ، لكنـه يحفظ هذا اليوم جيدا ، ويترقبه بلهفة . فكر في شراء هدية ، عرفانا بجميلها وتقديرا لها ، الا انه تنـازل عن فكرته لضيق ذات اليد ، ولانـه لا يضمن ان تقبل الهدية .

فتحت له الخادم ، فناولها اللفافة ووقف طويلا في الصالة ، ثم سرعان ما خرجت الست هناء ، فحياهـا وتبادل معها بضع كلمات ، ثم قال :

ـ كل سنة وانت طيبة يا ست هانم .

ـ وانت طيب يا مرزوق .. لكن ما المناسبة ؟.

ـ الا تعرفين ان اليوم عيـد ميلادك ؟.

ـ أعرف ، لكن كيف عرفت انت؟

ـ احفظه جيدا يا ست هانـم ، كل سنة وانت طيبة ..

ـ تعرف انك اول واحد يهنئني؟

غابت عنه قليلا ثم ما لبثـت ان رجعت ودست في يده ورقة مالية .

ثم استأذن لتأخره على الحاج . هبط الدرج في أناة وتمهل ، وبسط كفه فذهل . لقد اعطـتـه عشرة جنيهات !.. يا الله !.. هل تهنئته غالية الى هذا الحد ؟. فكر في ان يصعد ثانية وينبهها ، فلربما تكون قد نسيت . الا انه تنازل عن ذلك ، اعتقادا منه بانها لا يمكن ان تنسى! لا شك انها تود ان تكافئه مكافـأة سخية على هذه التهنئة ، فالتهنئـة قد تستحق هذه المكافأة ، ولو انها

مكافأة كبيرة لم يكن يحلم بها .

خيل اليه انه يحلم ، وسرعان ما يفيق من الحلم فلا يجد شيئا . وبحركة لا ادارية تسللت اصابع يده المرتعشة الى جيبه واطمأنت الى الورقة المالية التي استوطنت جيبه.

ارتشف الرشفة الاخيرة من قدح الشاي في تلذذ وهو شبه حالم ، ثم اضطجع على الفراش منشدا الراحة، الا انه سرعان ما نهض وتهيأ للخروج.

ـ الى أين ؟.

سألته وهي تعجب لتغيره المفاجيء .

ـ تخرجين معي نتفسح ؟!

ـ أجننت ؟!.. أين نذهب ؟.

ـ كما يحلو لك .. أخرج انا .

لم يشأ ان يجادل او يلح ، فهو ادرى بصلابة رأيها وعنادها . لن تفهمه بسهولة ، وهو الان لا يطيق الجدال او الالحاح ، ولا يطيق صبرا ازاء استفسارات زوجه التي لا تنتهي . لقد افرغ عربة ضخمة من اكياس القطن قبل ان يرجع الى البيت ، وسمح له الحاج فهيم ان يتغدى ويستريح ثم يعود بعد العصر لتفريغ باقي العربات التي ستصل بعد ساعتين او اكثر قليلا .

بعد خروجه من الزقاق ، التقى بأبناء الحي على المقهى . اقتعد كرسيا من القش وتبادل التحية وبضع كلمات متناثرة ، قال له أحدهم :

ـ مشروبك على حسابي يا مرزوق .

ـ لا يا جماعة ، مشاريبكم كلها على حسابي .

دهش الجميع ، وانثالت الكلمات في تفاوت زمني ..

ـ كلها ، كلها .. هذا كثير .

لم يصدقه احد . كرر ذات الكلمات ، تأكيدا لما يعني ، الا انهم تبادلوا نظرات الاستنكار والشك. قال مرزوق في حدة :

ـ والله العظيم يا جماعة ، كلام جد .

ولم يصدقه احد.أحس باكتئاب، وبضيق في صدره يكاديكون اختناقا. أخرج الورقة المالية وبسطها امامهم على الطاولة مشيرا اليها بأصبع السبابة في زهو :

ـ معي عشرة جنيهات صدقتموني ؟.

تبادلوا مرة اخرى نظرات الاستنكار والشك ، ثم أمعنوا النظر اليه في ارتياب . انفجر احدهم فجأة، وهو مشهور بنكاته اللاذعة :

ـ لازم سرقها .

فضحكوا ضحكات عالية . اغتاظ مرزوق وأحس ان الارض تكاد تميد من تحته . آخر يقارع الاول في التعليقات :

ـ لا يا اخي .. الحاج طلب منه توصيلها للست هانم .

انفجرت الضحكات مرة اخرى بصوت اعلى ، ود لو تنشق الارض من تحت قدميه وتبتلعه . قال ثالث :

ـ عشرة جنيهات يا مرزوق دفعة واحدة !. صدق من اسماك مرزوق.. صحيح انت مرزوق .

هب واقفا في غيظ ، وترك مجلسهم دون تحية ، ثم هرول بعيدا عنهم ، وصوت صبي المقهى يتعقبه مناديا :

ـ المشروب .. المشروب يا مرزوق ..

فقال له احدهم :

ـ مشروب !.. مرزوق لا يشرب، يدفع فقط ثمن المشاريب !.

وغرقوا في ضحكات ماجنة امضوا فيها باقي وقتهم ، وكانت هذه هي تسليتهم ، ظلوا يتسلون بحكايات ونوادر عن مرزوق .

أما هو، فقد سار مكتئب الصدر، حزين النفس ، لا يلوي على شيء ولا يحس بطعم للحياة . كان جهم الوجه ، كاسف البال . أحس بأن الورقة التي زارت جيبه ضيف غريب لا يتناسب مقامه مع حقارته ومهانته . جال بعينيه في جلبابه الرث القاتم اللون . أما جيبه القابع في الركن العلوي الايسر فهو جيب صغير لا يتسع الا للقروش العديدة. أما هذه الورقة الغريبة، فقد تكومت في جيبه الصغير فانتفخ، وكأنه ضجر من وجودها . أحس بأنها حمل ثقيل ينوء به جيبه ، فتثاقل عليه الاحساس .

قادته خطاه الى شاطيء النيل ، فسار بمحاذاته، فترة ثم اقتعد مقعدا رخاميا ليستريح . تكسرت حدة الشمس قليلا ، فأحس بأنه يتوجب عليه الرجوع الى المحل . لكن ماذا يفعل بالعشرة جنيهات ؟. كيف يتصرف ؟. هل يصدق الحاج فهيم انها ملكه ؟. فليلق بها في قاع النهر وكأنها لم تكن . انها ملكه ، ويحق له ان يتصرف فيها كيفما يشاء . ود لو يحرق الورقة امام اصدقائه الذين سخروا منه ولم يصدقوه . اليوم عيد ميلاده ، انه يتذكره الان فقط ، واليوم عيد ميلاد السيدة هناء ايضا ، فيا لها من مصادفة عجيبة !. ورغم هذا فلا احد يهنئه بهذا العيد . زوجه الساخطة لا تذكر هذا اليوم ، واصدقاؤه الماجنون لا يهتمون به . الكل لاه عنه غريب .

انه يستطيع ان يهبها لاول عابر طريق يهنئه بهذا العيد ، او حتى يلقي عليه السلام ، فقط يحييه ، يا لها من تحية غالية !. أخذ يرقب المارة ويمعن النظر في وجوههم. الكل لاه عنه غريب . لا احد يلتفت اليه، ولا حتى يحييه بنظراته !. ماذا جرى للدنيا يا ترى ؟!. وماذا جرى له حتى يفكر في مثل هذه الامور ؟!.

لن يلقي الورقة في النهر، خسارة! وأيا كان نوع الغضب الذي يعتريه الان ، فلا يصح ان يؤدي به الى هذا التصرف الاحمق . نهض عن كرسيه حتى يحسم الامر ، ومشى في اتجاه حي « السيدة زينب ». ركض في لهفة وكأنه على موعد . فالمطلوب منه التوجه الى المحل ، واي تأخير سيحاسب عليه محاسبة قاسية ،

الصهاينة

نظمتها بعد شهر من الهجوم العربي المظفرعلى جيش اسرائيل في سيناء والجولان :

نزلوا فلسطين الحنون بلاء ... ومضوا يجرون الذيول وباء
لم يتركوا أملا يرف ولا منى ... تهفو بأبناء الصدور رجاء
صكوا المسامع بالقذائف، ونبروا ... يذرون في عين البصير هباء
ما ذاق قومي منهم الا الاسى ... والبؤس والتنكيل والادواء
والظلم مسنون النيوب كأنها ... قد أشرعت نحو الصدور فناء
والبطش والتقتيل والتشريد لم ... يعرف لها تاريخنا نظراء
حتى اتى يوم أطرنا لبهم ... فيه ، وأصبح دمعهم دأماء
ودماؤهم رويت بها أرجاؤنا ... ثأرا لاحباب قضوا شهداء
من يسفح الدم ظالما متغطرسا ... ويشن حربا كالردى هوجاء
ويدك آمال الشعوب بريئة ... ويسومها الاذلال والايذاء
يف فادح الدين، الذي في عنقه، ... في حومة الحرب الضروس دماء

يا رافعين بجيشهم راياتهم ... وهو الذي حمل الفرار لواء
أنسيتم الاجناد، وهي تسوقكم ... غنما ، وتنشب فيكم الارزاء
وتصب في سينائنا لكم الردى ... مرا ، فيفني أذوبا وجراء
وتدك في جولاننا نيرانها ... شم الحصون ، وتنثر الاشلاء
ويطيح انسرنا قلاع نسوركم ... فيعقمون بمحقها الاجواء
فذكرت في تشرين عند سقوطهم ... ورق الخريف يصارع الانواء
خافوا المنايا في أكف نسورنا ... فأبوا قراع العرب في سيناء
وتصدعوا لما رأوا عقباننا ... حموا العرين وانقذوا الفيحاء
لم يجرعوا من جيشنا مستبسلا ... الا الهموم السود والضراء
فالعرب آساد المعامع في الدنى ... قهروا العدى، واستعبدوا الهيجاء
من فر حيا من ضرام وغاهم ... شكر الاله ، وحمد الالاء
قد عطر التاريخ ذكر فتوحهم ... وتضوعوا بين الورى أنباء

محمد العدناني

الا انه عرج على منزل الحاج ، وصمم على ارجاع الورقة المالية الى صاحبتها . وارتسمت على شفتيه ابتسامة هادئة وهو يتخيل الست هناء وهي تسأله عن السبب ، وما يقوله لها من انه ليس محتاجا الى المال بقدر حاجته الى رضا الناس عنه . دق جرس الباب في لهفة ، وحين قابلته الست هناء ، كانت انفاسه تلهث وقلبه يدق بسرعة . سألته :

ــ ماذا جرى لك يا مرزوق ؟!.

ــ اشكرك يا ست هانم، لكن...

وناولها العشرة جنيهات . ثم هم بالخروج ، لكنها استوقفته متسائلة:

ــ لماذا لم تعطها للحاج ؟.

أفاق من احلامه، وتذكر ان الحاج قد طلب منه احضارها من البيت!. وكان الحاج قد اتصل تليفونيا بزوجه وأوصاها بذلك .

كررت سؤالها في حدة :

ــ لماذا لم تعطها للحاج ؟.

ــ لقد ... نسيت !.

ــ الم تسأل نفسك لماذا اعطيتها لك ؟.. أم انك ستظل طول عمرك بطيء الفهم ؟.

أخفى وجهه عنها ، محاولا حبس الدموع التي توشك أن تنحبس من عينيه .

ــ آسف يا ست هانم .. اعطني اياها ..

وهبط الدرج بخطى متعبة ، وهو يتساءل في مرارة : لماذا تقسو عليه الست هناء ؟.. أليست تكفيه سخرية الزما ، واحلام يقظته التي صورت له الوهم حقيقة ؟.

واغرورقت عيناه بالدموع ..

القاهرة ... حسني سيد لبيب



عامر محمد بحيري

حصاد السنين

بقلم عامر محمد بحيري

* * *

مدائح الموتى ..

اذا ذكرت ابواب الشعر العربي ، ذكر في مقدمتها باب المديح .. وربما ذكر باب الرثاء في آخرها .. على ان الصلة جد وثيقة بينهما .. فاذا كان المديح هو ذكر فضائل الاحياء ، فالرثاء هو ذكر فضائل الموتى .. وهو اصدق تعبيرا عن المشاعر ، لان قائله يذكر الممدوح وهو مجرد من كل المطامع والاغراض الدنيوية ، التي يتلمسها سواه عند الاحياء .

وقد احصيت من قصائد الرثاء التي نظمتها قرابة سبعين قصيدة ، على مدى يزيد عن خمسة واربعين عاما .. ويربو عدد ابيات هذه القصائد على الفين وخمسمائة من الابيات ..

على انني حين انظر اليها اليوم في مجموعها اجدها تنقسم الى اقسام :

منها قصائد قلتها في بعض الكبراء ، لما لهم من مكان الزعامة او الصدارة .. وقد كنت شابا متطلعا ، ووطنيا متحمسا .. ومن هنا امكن ان تكون هذه القصائد معدودة من الشعر الوطني ، لان الابيات التي تشير فيها لهذا الغرض تفوق الابيات التي يذكر فيها الممدوح ، مهما تكن أعماله وآثاره .

ومنها قصائد قلتها في رحيل بعض الشعراء .. وهؤلاء اقسام كذلك .. فشوقي مثلا ، رثيته اول رحيله عام ١٩٣٢ . بقصيدة احس فيها انني اقترب من موضوع له اهمية خاصة بالنسبة الي ، ثم رثيته بعد ذلك بقرابة ربع قرن ، حين دعا المجلس الاعلى للفنون والآداب الى احياء ذكراه عام ١٩٥٨ .. وبعد شوقي رثيت حافظا بقصيدة باكرة نشرت في العدد الخاص الذي اصدرته مجلة ابولو (يوليو ١٩٣٣) .. قلت فيها :

رعى الله شعرا قد غذيت لبانه	ولي سنوات اهلتني له عشر
فما كان سفري غير ديوان حافظ	وانعم به سفرا اذا اعوز السفر

ومنها قصائد قلتها في رحيل بعض اساتذتي .. الذين تلقيت على ايديهم العلم ، والتوجيه اول وقوفي على ساحل بحر الحياة .. ولم انس فضلهم .. حتى قرنت احدهم بأبي ، واحسست وقد وافته المنية بعد ابي ، بقرابة عام واحد ، ان ابي نفسه هو الذي يرحل عني مرة اخرى .. ومع هذا فهيهات ان اكون قد وفيت هؤلاء الاجلاء بعض حقهم علي ..

وهناك قصائد قلتها في رثاء بعض زملائي ، في الشباب بخاصة .. منهم شهداء الوطنية ، وكان اكبر دافع على رثائهم هو هذا الاحساس بالواجب الوطني ، نحو افذاذ من الشباب ، آثروا ان يضحوا بارواحهم في سبيل مبادئهم السامية ، ومثلهم العليا ، منذ نعومة اظفارهم .. ومنهم الذين كانوا شهداء العلم ، او الجهاد الدائب ، كزميلي الذي لقي وجه ربه ، وهو طالب في ليسانس الحقوق ، وكانت الحرب العالمية الثانية على اشدها .. وكان خطر الغزو الاجنبي ، محدقا بمصر من جهة الغرب ، وجيوش الحلفاء جاثمة على صدرها .. فجعلت اكثر هذه القصيدة ــ بعد توفية زميلي حقه ــ ان انبه المواطنين الى واجبهم نحو الدفاع عن بلادهم ، التي كانت دائما مقبرة الفاتح ، وقضاء على المغتصب .. وكان ذلك عام ١٩٤٠ ..

وهناك قصائد قلتها في شخصيات ادبية قومية وعالمية ، وخاصة من الشعراء .. مثل شكسبير ، بمناسبة ذكراه المئوية الرابعة (١٩٦٤) .. وبرناردشو بمناسبة وفاته (١٩٥١) .. والعقاد في مصر (١٩٦٤) .. ثم الزميل علي باكثير (١٩٦٩) .. وفي هذه القصيدة وامثالها ، من المشاعر الصادقة ، مزيج من مشاعر الصداقة والقرابة الادبية والفكرية ..

وربما قلت ان هناك الجانب الشخصي .. وفي هذا المجال .. رثيت ابي (١٩٤٦) ثم شقيقي (١٩٧٢) .. بل انني في غمار الحياة رثيت نفسي بأبيات ، في ساعة من ساعات الضيق ، والقلق ، والاحساس بالضياع ..

هذا مجمل ما حوته مجموعة « مدائح الموتى » .. التي استخلصتها من بين الاوراق ..

على ان المجموعة في تسلسلها التاريخي ، بحاجة الى

استعراض سريع ، يقف عند بعض المواضع ، ويقدم عليها بعض الشواهد ..

اول ما يطالعني .. في تجربة هذا النوع من الشعر .. مرثية لسعد زغلول (١٩٢٧) وكنت في الخامسة عشرة .. وعند اول خطوة اخطوها في طريق الشعر .. وهذه ابياتها :

قد روع الشعب طرا فقد قائده ... وهو الذي لم يكن يوما بمرتاع
وهزه الذعر من رزء ألم بـه ... وصار للخطب في حزن واوجاع
وكيف يصبر عن درع لـه سلبت ... وعن حسام شديد الضرب قطاع
اين الرئيس ؟ وهل من بعده بطل ... يرد عـن شعبه اطماع طماع

ولم يكن الموقف يتطلب مجرد الحزن ، ولكن الاحساس الوطني كان غامرا ، فدفعني الى ذكر الائتلاف بين الاحزاب ، الذي كان آخر مآثر الزعيم الراحل .. فقلت في بيات اخرى :

قيل اودى سعد فالاحزاب طـرا ... بعده تخشى جرائيـم الخلاف
وبلاد الشرق تبكي فيـه شهمـا ... حل بين القلب منهـا والشغاف
كان ليث الغاب يحمي شعب مصر ... يرهب الاعـداء لكـن لا يخاف
هل درى القائل ان الشعب بـاق ... يحفظ العهد ، ويحمي الائتلاف
ام درى القائـل ان النيل حـر ... ودعاة السوء في الوادي ضعاف
فلتعش مصر ، ويحي ذكر سعـد ... رددي باللـه يـا مصر الهتاف

وبعد خمس سنوات من هذا التاريخ ، كان الحدث الادبي الكبير ، بوفاة حافظ ثم شوقي .. وقد المحت الى قصيدتي في رثاء حافظ .. التي نشرت في العدد الخاص من مجلة ابولو .. اما شوقي فرثيته بقصيدة راعيت ان تكون معارضة لقصيدته هو في حفل تكريمه عام ١٩٢٧ ..

فقلت في مطلعها :

فجع الشرق في امير بيانه ... وعكاظ القرون في سحبانه

واذا كانت هذه القصيدة قد فقدت ــ وهذا مـا اشرت اليه من قبل ــ فعزاني عنهـا ابيات نشرت في صحيفة الاهرام في ١٣ ديسمبر ١٩٣٢ في وداع وفـود البلاد العربية الذين حضروا الـى مصر للاشتراك في حفلات تأبين امير الشعراء يومئذ .. ومنها :

وفود الشرق قـد نزلت بمصر ... بارحب دورهـا المستقبلات
سعوا قدما لهـا ، وسعت اليهـم ... وقامـوا نحوهـا بالواجبـات
وما شوقي .. شاعرها .. ولكـن ... لهـم فيـه حقـوق الامهات
سقاهم في يفـاع الشرق غيـث ... فـزان ربـاه مخضل النبـات
فكم قد انبتت مـن بعـد شوقي ... فطاحل اسكـروا بمعلقـات
سجدت لقـدرة قد علمتنـي ... ولاد النخل مـن دفـن النواة

وفي البيتين الاخيرين اشارة الى كبار شعراء البلاد العربية الذين رثوا شوقي يومئذ ، فكانت قصائدهم عزاء عن فقده ، ودليلا على ان الشعر بخير ، وكان في مقدمتهم بشارة الخوري بقصيدته المعروفة المشهورة ..

ثم كانت نقلة اخرى بعد عامين او ثلاثة .. ولكنهـا كانت نقلة كبيرة نحو الشعر الصحيح ، بعـد تأثري بالمدرستين الشعريتين اللتـين كنت احـد تلاميذهما يومئذ .. وهما مدرسة ابولو ، وكلية الآداب بجامعة القاهرة .. وفي هذه المرحلة رثيت الشاعر الكبير ابو القاسم الشابي شاعر تونس ، بقصيدة يظهر فيها التأثر بشعراء الرومانتيكية الذين كنت اقرأ لهم كثيرا يومئذ ، شعـر وسيرة حياة ، مثل شلي وكيتس وبيرون ووردزورث .. وغيرهم .. حتى شكل القصيدة كان علـى نمط مـن الاعتماد ، اخذته عن تلك الامثلـة .. فنظمته في بحر الخفيف ، وجعلت ترتيب قوافيه علـى النحو التالي : ١ ــ ٢ ــ ١ ــ ٢ ــ ٣ ــ ٣ ..

وهذا هو الصمد الاول من هذه القصيدة :

حالم انت يـا خيالي المذهب ... أم نزفت الدما من القلب نـارا
ان حسبت الخلود كالعمر فالعب ... وابعث الشمس ، واخلق الاشجارا
فاذا جن حالك الليل فاهرب ... مـا أظن الاضواء الا نهـارا
ثـم يهفو دخان ليـل عبوس ... مسحب الصمت ، قابض للنفوس

ومنهـا :

يا مراعي الصبى بسفح الجبال ... تحت نـور الشموس بالشطآن
ورسوما مـن الهوى والجمال ... ضاحكـات بريشـة الفنـان
كيف اصبحت فكرة في خيالـي ... بعـد ان كنت صورة فـي جناني
ليت عيني تراك فـي الفردوس ... مثلما كنت لـي ، فتعد نفسي

وفي هذين الصمدين ــ والقصيدة مكونة من ثلاثة عشر صمدا ــ ما يدل على الروح السائدة في القصيدة ، والجو الذي عاشته الفكرة في انشائها ..

اما النقلة الثانية .. فكانت في مراثـي الشهداء .. وكان ذلك بعد الاحداث الوطنية التـي جرت في شهر نوفمبر ١٩٣٥ .. وما بعده .. وكان التركيز فيهـا على الشهيد الجراحي شاعر كلية الآداب .. لانه كان شهيـدا وشاعرا في نفس الوقت .. بل كان أحد شعراء ابولـو ، فقد اتصل من قبل بالدكتور احمـد زكي ابـي شادي وعرض عليه شعره ، ونشر له في المجلة مختارات منه .. وقد احصيت في تلك الفترة ستا مـن القصائد في هـذا الموضوع وحده .. اهمها قصيدة « الحصاد المبكر » التي اشرت اليها في فصل سابق ، والتي قرأتها علـى الاستاذ الدكتور طه حسين ، قبل القائها نيابة عـن اتحاد كلية الآداب ، في الحفل الذي اقامته جماعة ابولو في شهر يناير عام ١٩٣٦ بنادي الموظفين بالاسكندرية .. وقـد وقف الاستاذ الدكتور طه حسين ، عند بعض ابيات القصيدة ، وطلب اعادتها عليه ، متابعة لما تثيره من جو شعري .. مثل هذا البيت :

البدر في ليل الحصاد مساهم ... فالدمع نـور ، والوجوم ظلال

ومثل هذا البيت :

البدر في ليل الحصاد حقيقة ... لكنـه عنـد الصباح خيـال

كما وقف عند بيت يقول :

هي زهرة مـا كان اقوى عطرهـا ... زهر العشية عطره قتـال

فقال لي : انك تطلق احكامـا نهائية في القضايا ، لا ادري اهي صحيحة في ذاتها ام لا ؟ مثل قولك « زهـر العشية عطره قتال » .. فقلت : انها احكام صحيحة .. فهذا المعنى يشير الى ما يطلقه النبات ، والازهار خاصة ، من عطر الكلوروفيل في الليل .. ولذا لا توضع الازهار في حجرات النوم لهذا السبب !

وفي عام ١٩٣٨ فقد الشعر واحدا من شعراء الشباب الموهوبين هو المرحوم محمد عبد المعطي الهمشري .. وان كان للهمشري اصدقاء اقرب صلة به مني ، الا انني زاملته في كلية الآداب ، وصادقته ، وكان بيننا تقدير متبادل ، ولما كان طيب النفس ، فقد سمعت منه كثيرا عن التقدير لما يكون قد قراه لي من شعر .. اما انا فكنت أراه في مقدمة الشعراء الموهوبين من الشباب .. ولذلك كانت خسارة الشعر فيه فادحة ، احسستها ، فنظمت في رثائه قصيدة .. متأثرا بجو من الحزن ، ربما كان يرجع الى ذلك الجو الحزين ، الذي كان يطلقه هو في قصائده ، ويذكر فيه الموت وما يحيط به ، وفي مقدمتها ملحمته الكبيرة « شاطىء الاعراف » .

وهذه ابيات من مرثيتي له :

يا طيف لا تبرح بوادي عبقر — ولك الخلود على ممر الاعصر
ولروحك البيضاء في تحليقها — فوق الجبال ، وفوق مجرى الانهر
ولسحرك المخلوق مما صغته — للفن من نور الحقول المزهر
ولريشة موهوبة نور الضحى — غمرت باحزان الصباح المبكر
ولما ملأت الجو من قيثارة — تشجي بلحن للفناء مصفر
ان كنت قد قصرت فيما صغته — من مهجتي ، والحزن ليس بمقصر
ودرجت بعدك كالقليل وفاؤه — حين الطبيعة في جوى وتأثر
فغدا على الاعراف حتم لقائنا — لنطوف في روض السماء المشجر

وربما قلت ــ في مقام الناقد ــ ان في هذه القصيدة مسحة من التأثر التي تتضح من قصيدة الشاعر توماس جراي المعروفة « مرثية في ساحة كنيسة قروية » .. وقد ترجمها الكثيرون يومئذ شعرا ونثرا ، ولعل الهمشري كان احدهم .. وقد حاولت هذه الترجمة كذلك ، ولكني لم ازد على ابيات من المطلع .. قلت في اولها :

دقت نواقيس الغروب .. فآذنت — برحيل يوم ، وانقضاء نهار

وتوفي صديقي وزميلي واخي عبد الحميد فوزي الشواربي ، وهو طالب في ليسانس الحقوق .. عام ١٩٤٠ .. فالقيت في رثائه قصيدة طويلة مطلعها :

هجع الشبل مبكرا في الهجوع — واستطاب الرجوع قبل الرجوع

قلت فيها :

كنت فذ النبوغ لو قد تمهلت قليلا .. ولم تكن ذا قريع
واذا زالت الشموس عن الابراج يوما .. لم يغن ضوء الشموع

وهذه هي القصيدة ، التي قلتها في اوائل الحرب العالمية الثانية ، وذكرت فيها الشباب بواجب الدفاع عن ارض الوطن ، امام المحتلين الغاصبين ، والمغيرين الطامعين .. ومنها هذه الابيات :

يا شباب الحمى ، اليكم اسوق القول ، جهد الناصح المستطيع
لكم حكم مصر .. في مقبل الايام .. انتم حماة هذي الربوع
غير ان المنى مراد المنايا — ليس في الموت لامرىء من شفيع
ان للموت في العباد لحكما — يمهل الشيخ في طلاب الرضيع
فاجعلوا الحق رائدا واماما — لا تميلوا مع الهوى والنزوع
واجعلوا مصر قبلة .. انما القبلة محراب مسجد ، وركوع
ان ترب الاوطان قدس حرام — لا يطاه عليكم ذو دروع
واخرجوا للوغى كما يخرج الابطال صفا ، صفا .. بغير صدوع
لا تقولوا هذا وذاك .. فليست — غير مصر ، وطاش حزب الخضوع
لم تكن مصر غير مقبرة الفا — تح ، فاعجب للفاتح المصروع
وهي حقل الخيرات ينضح سما — للاعادي ، من دافق الينبوع
ان من رام للبلاد افتتاحا — ظمأ ساقه ، وقسوة جوع
فاحفظوا خيركم ، وصونوا حماكم — واملكوا الامر بالفؤاد الجميع
رب الف بين القلوب لدى الرو — ع ، وصل حبل ودنا المقطوع
رب وفق بلادنا لرشاد — واهدها في جهادها المشروع
الاصول الاصول .. للرأي والحكمة .. والجهد للفروع ، الفروع

واظن الآن ، انني قلت يومئذ كل ما يمكن ان يقول مثلي من الشباب ، في مثل ذلك الموقف .. ولعله ان لم يكن قد اثمر في وقته .. ان يكون قد اثمر بعد ذلك بسنوات ..

ولا انسى انني وقفت في تلك الايام (١٩٤١) في حفل واحد ، مع ، شاعرين من كبار شعراء الوقت .. هما خليل مطران ، وعباس محمود العقاد .. لارثي كبير الصحافة يومئذ .. المرحوم عبد القادر حمزة صاحب البلاغ . فلم اتهيب الموقف .. بل قلت ما عبر لي عنه العقاد يومئذ بغاية الرضى ، اذ قلت في صاحب القلم الصحفي القادر ..

فجرد السيف ، الا انه قلم — يرمي بقاصفه في وجه قاصفه

وذكرت الصحافة فقلت انها مدرسة الشعب :

ان الصحافة حزب الحق تنصره — ومعهد الشعب يؤوي من طوائفه
قد ذاق آخرها آلام اولها — وسالك النهج ماض في مخاوفه

ولم يكد ابي يلقى وجه ربه (مارس ١٩٤٦) .. حتى فجعت في استاذي الجليل ، الاستاذ الاكبر الشيخ مصطفى عبد الرازق (فبراير ١٩٤٧) .. وقد كان احد الجامعيين الاوائل ، الذين تلقنت على يديهم مبادىء الحياة الجامعية السامية ، والعلاقة الوطيدة من الصداقة بين الطالب والاستاذ .. حتى لقد احسست لذع الحزن بوفاة ابي مرة اخرى .. وهذا مطلع مرثية الاستاذ الاكبر :

فاضت لنعيك ادمع الاشعار — وجرى الغمام بواكف مدرار
سبحان ربي ، اي خطب هدني — كالعاصف المتمرد الجبار
أأبي الذي ودعت .. ينعى مرة — أخرى ؟ فيا ويلي من الاقدار
لا بل ابي في العلم .. قد عصف الردى — بهدوئه .. في ظلمة الاسوار

ومن القصيدة في وصف ذلك المشهد الحزين :

خرجوا بنعش بالفضيلة والهدى — كاس ، وعن سرق المطارف عار
قد احرمت اعواده فتجردت — اغدت تطوف بكعبة الابرار
لم يثقلوها بالورود .. فقد كفى — ما انت مانحها من الازهار
وملائك الرحمن حولك حوم — يتخطفون مسالك الابصار
لا تستبين العين في اجهاشها — منهم سوى الاطياف ، والاطيار
والنعش متئد المسير .. كانما — يحكي خطاك .. بمهلة ووقار

وكل من عرف الفقيد المرثي بهذه القصيدة ، يعرف تماما دقة الصورة التي حملتها لشخصه في هذا البيت الاخير ..

وبعد عودتي من رحلة الحجاز ، في عام ١٩٤٩ .. رثيت الشاعر الكبير خليل مطران .. الذي كانت منيته اثناء غيبتي عن مصر .. فذكرت يوم وقفت مع صديق

لي - في المؤتمر الثقافي العربي الاول لجامعة الدول العربية .. على آثار بعلبك .. فقال لي : ان هـــذا هـــو موطن الشاعر مطران ! وكأني اذ استشهد بهـذا اليوم ، اوافق ما احتفل به الادباء في هذا الشهـــر الاخير (سبتمبـــر ١٩٧٣) من نقل رفات الشاعر الكبير ، الى حيث الراحة الابدية في مسقط رأسه .. بعلبك :

رب يـــوم ببعلبك .. أشاع الـ — روع والفن بـين تلـك الخرائب
وكـــان التاريخ فيـه نهــار — جنحت شمسه وراء السحائب
كان يجري الحديث عذبـــا شهيا — والقوافي المجنحات الغرائب
قال لـــي صاحبي عشية سرنـــا — في ربى الارز ، والثلوج الاشاهب
ان هذي البقاع .. منشأ مطـرا — ن.. وهذي الربى، وهذي السواكب

ولا استطيع ان اسير مع هذه المدائح الصادقة ، لمن سبقوا الى عالم الخلود .. فهي كثيرة ، فضلا عما تحمل من ذكريات حزينة .. واسماء صديقة .. ولكنـــي اقف عند ابيات قلتها عندما لقـي الرائد المفكـر الكبير سلامـة موسى منيته .. اوائل عام ١٩٥٩ .. بعد ان ترك اثـره البعيد في شباب جيله ، مجددا ، ومتحررا .. وكان عند بلوغه السبعين ، يأمل ان يصل الـــى المائة .. فاخلفت الاقدار ظنه .. كما كان لا يؤمن بالبعث .. فرحت اسأل هذا المفكر الكبير ماذا وجد ؟ وهل يصلح هذا الموت الذي نعرفه بشعا كريها ، نهاية لهذه الحياة الخصبة المنتجة ؟. فقلت :

ماذا وراء المــوت مـــن أخبـــاء — حدث ، فمثلـــك كاشف الاسرار
اوجـــدت فيــه للحيـــاة نهايـة — تبلـى نضير الروض والازهـــار
تقضي على الانسان وهو مجاهـد — يبغي الخلود .. بفكره الجبـــار
وتحيله تربا .. وتهـــدم فوقـه — فـي لمحة ما شاد فـي ادهار
ام قد شهدت مـــن الممات بدايـة — لحيـــاة تخليـــد .. بـــدار قـرار
فيهـــا الحقيقة كالخيال رهيبـة — ملموسة .. من جنة ، او نـــار
وبهـــا خلاصة كـــل علـم نافـــع — وبهـــا هدايـة كـل عقـل دار
تتكشف الاكـــوان عـــن ســر المدى — وتزيح عنـه عوائـــق الاستـــار
والعلم يخرج كـــل مكنوناتـــه — فتـرى البصائـر رؤيـة الابصار
كون جديد .. بـــاذل متكامـــل — ما فيه من حسد ، ولا استئثـــار
امـــا الممات .. فزورق متنقـــل — بالخلق .. بين شواطيء الانهـار
ما اتعس الدنيا .. لو ان مماتنا — كـــان الختام .. لقصة الاعصار

وهذا المعنى الذي تضمنه البيت الاخير .. هو الذي يعنيني هنا ، لانني اعدت ذكره في القصيدة التي قلت انني رثيت فيها نفسي .. وكان ذلك في نفس تلك الفترة مـــن عام ١٩٥٩ .. فذكرت حظ الاديب من الاهمال في حياته حتى اذا ادركه الموت راح يغني بفضائله المنشدون :

بعد موتـي سيعرف الناس قدري — وسيتلون فـــي المحافل شعـري
وسيبدو القبيح منــــه جميــلا — رائع الحسن ، بين زهـر وعطـر
وسيسعى من كـــان يبغض مرآ — ي.. حثيث الخطى، لاحياء ذكرى
كلمات .. يذيعها الشيـــخ والنا — شيء .. مـــا بين عارف ومقـــر
يجمعـــون الــذي تفــرق بالاهـ — ـمال .. جمع الحريص غالي تبر
فتـــرى دارسا يفيـــض بدرس — وتـــرى ناشـــرا يهـم بنشـــر
وترانـــي بعثت بالشعر حيـــا — وكانـــي نشـــأت اول دهـــري
ليت شعري .. الم يكن ذاك اولى — في حياتي .. من وقفة عند قبري

ثـــم اقول :

لست ادري .. ماذا دهى الناس من كر — هي .. وقلبي يحبهم .. لست ادري
ان راوني مقطبـــا .. فلانـــي — لم اجد منهم ابتسامة ثغـــر
ان قلبي يحس .. مـــن قبل ان تبصر عيني .. فـــلا يقر بصدري
كـــم صديق منحته الود صرفـــا — فجزانـــي علـى الوفـــاء بغـدر
كـــم عزيـــز وصلتـــه بفؤادي — لـــم اجد فـي جوابه غير هجرى
كـــم اديب .. احب افكـــاره العصماء.. — وهو الحسود لي،ولفكري
كـــم محب لنفسه .. يزدرينـــي — ما درى اننـــي .. محب لغيرى
انما الحب في الحياة .. هو الدين — .. هو الوحي فاض في كـل عصر

وبعد هذه الفقرة الحزينة .. خلصت الـــى الفكرة التي ذكرتها في مرثية سلامة موسى .. وهـــي ان البعث ضرورة لتصفية كل ما مر في الحياة علـــى الانسان مـــن متاعب ومظالم .. فقلت :

بعض مـــا يبرد الجوانح منى — انني مؤمـــن ببعث ، ونشـر
لست ارتاب لحظة .. ان هـذا السكون مـــاض بنـــا الـى مستقـر
ان هـــذي الحياة مـــن غير بعث — لهـي اكذوبـة الوجود .. لعمرى

وبهذا نصل الى نهاية هذا العرض الوفي الصادق . ولعلنا ونحن نعيش الحياة بجانبيها من خير وشر ، وفرح وحزن ، نوفق للانتقال الى لون جديد مـــن الوان هـــذا الحصاد .. يشيع في نفوسنا البهجة والسرور .. حين نتحدث عن موضوع « البحث عن الحب » !

مصر الجديدة — عامر محمد بحيري

ارقام تافهة

●

قد صرت ايا عمـلاق تخـاف
وضميرك اجـرب
تقتات على نتف الانتاف
وتهلل حين يكبر أرنب
تلف السيف البتار ...
وشـاخ السيـاف
لكن الطفـل ...
يظل كجيش لاه لا يغلب
ينمـــو ...
ويهاجر مع قمر الاريـاف
ويعود كليلة هاجر ممتطيا كوكب
كالمارد كسر جـدران الاصداف
ورمى في وجه التاريخ الحافي
أرقـا تافهة لن تحسب

عمان ــ الاردن — عبد الله منصور

دمعة الذكريات

« كان الشاعر نعمان ماهر الكنعاني ، رئيس جمعية المؤلفين والكتاب العراقيين ، قد تحدث في الجمعية عن ذكرياته عن المرحوم الشاعر انور العطار ، وأعد لهذه المناسبة هذه القصيدة الا انه لم يلقها في حينه ».

غوطة الشام ما الاسى من شعاري ... اين نجوى الهوى وسجع الكناري
قسوة ان اجيء ، يحملني الشوق ... فالفلاك في رداء السرار
سكت الصادح الذي سكب الا ... لحان شعرا في مسمع القيثار
وتهاوى على الينابيع ظمئا ... ن كسير الجناح ، شادي الهزار

غوطة الشام ، ذكرياتي ظمـاء ... لقوافي الندي ، والسمار
للصباح المضمخ النوار ... للمساء الجذلان للاسمار
للترانيم عانقتها الروابي ... فسرى الشوق في هتاف القماري
لدراري (المهاجرين(1)) تالقن ... فضاعت فيهن زهر الدراري
قسوة أن أزور ، لا الشعر يلقا ... ني حفيا ولا ابتسام المزار
قد طوى الصمت شاديا عن مغانيك نقي الصداح والاوتار
كنت أخشى الانباء عنه وأرضى ... ان تكون النوى لبعد الديار
وأذود الطيف الذي خلع السقم ... على وجهه وشاح اصفرار
لم يدع لي منعاه غير جواب الـ ... دمع ، والدمع بعض حر الاوار

يا (ظلال الايام(2)) ما انحسر الظل ... ولا السدوح نائم الاسحار
فعلى (دمر) ظلال قواف ... تسحب الذيل عن ثنايا فخار
وعلى (الربوة) الموشاة همس ... علم الورق خفقة التذكار
وعلى (النيربين) رفرف شعر ... نسجته انامل من نضار
يا (ظلال الايام) يا ملتقى الشا ... م ببغداد في حداء الساري
لم يزل (ليل دجلة) يتغنى ... بقصيد الاعجاب والاكبار
لم يزل مائس (النخيل) يناجي ... الماء نشوان حالم الاذكار
والمجاديف تسأل (الشط) هل في ... الموج ما رابه من الاخبار
يتهادى مرنح الخطو أسيان ... تجافته زهوة التيار

دوحة الشعر دمعة ووجيب ... والتراتيل جمجمات انكسار
فارق الروض ، والربيع يعد الوشى قيثار (أنور العطار)

---

(1) المهاجرين، حي معروف بدمشق. (2) ظلال الايام : ديوان الشاعر المرحوم أنور العطار والاسماء المذكورة بين الاقواس عناوين قصائد في هذا الديوان .

بغداد ... نعمان ماهر الكنعاني

الشيخ نديم الملاح

عالم فقيه موسوعي غاب وجهه . رحمه الله

(١٣١٠ هـ - ١٣٩٣ هـ)

بقلم عجاج نويهض

***

هو من طرابلس، عاصمة لبنان الثانية . لما بدأت اعرفه في دمشق سنتي ١٩١٩ و ١٩٢٠ كان في الشباب المتوثب ، لم تفارقه العمامة كل حياته ، نحيل الجسم ، قصيره نوعا ما ، حلو الحديث ، واسع المعلومات ، تشغل باله قضية بلاده من سوريا ولبنان ، حاضر للمناقشة في أي وقت، خطيب ارتجال من الطراز الواعي . سمعته في « النادي العربي » في دمشق ، فكان في خطبته يمثل عنصر الشباب الذي يجمع بين الحرص على الفضائل الاسلامية ، والامة في بدء دور تطور ، وبين الانبعاث القومي العربي الى اقصى حد .

أديب دقيق الميزان . محيط بدقائق اللغة . كثير الحفظ لمتونها وشواردها ، وامثالها وحكاياتها ، فاذا قلت انه لغوي غزير المورد ، فلا اكون وصفته بغير ما فيه . نخل التاريخ العربي الاسلامي نخلا . وشاعر طيب القول رشيق المعنى . مؤلف رصين العبارة ، واحبها اسلوبا اليه، أقربها تناولا لتدخل الاذان وتستقر في الأذهان دون استئذان . بعد ان انهارت الحكومة العربية الفيصلية في دمشق أواخر تموز ١٩٢٠ وتفرق العشاق في الارجاء القريبة والبعيدة من البلاد ، كان من الخطة ان يمم فريق مسؤول منهم عمان ، فجعلوا يتواردون ويقيمون لا في عمان وحدها، بل توزعوا في انحاء مختلفة انتظار ما يأتي به الغيب المرصود . واني لا اعلم متى هبط الشيخ نديم القدس ، لا الاردن ، من دمشق ، ولكن على كل حال في الحادية والعشرين او الثانية والعشرين على الراجح . وهذه النقطة يمكن تحقيقها من اهله بسهولة، او من خلص صحبه.

ويجوز انه قد اتى عمان اولا ، ثم تحول الى القدس ليتولى التعليم في « كلية روضة المعارف الوطنية » التي كان على راسها المربي الفاضل الشيخ محمد الصالح والاستاذ عبداللطيف تحسيني ، على كل فقد تجددت صلتي به ، وهو يعلم في « الروضة »، اللغة العربية والادب العربي . وكنت ابتدأت اعمل في المجلس الاسلامي الاعلى لرئيسه مفتي فلسطين سماحة الحاج محمد امين الحسيني ، ولسماحة الحسيني عقد لواء الزعامة العربية في فلسطين الاشواط كلها .

وكانت كلية « الروضة » اول معهد علمي وطني في فلسطين يمم العرب وجوههم شطره لنهجه الوطني، والبلاد في بداية عراكها مع الصهيونية . فالتعليم القومي الموقظ المعد للعزائم والاذهان ليوم آت ، كان ضروريا ضرورة الماء والهواء . وهذا الامر كان حريصا عليه رئيس المجلس الاسلامي الاعلى الحرص كله ، فجعل بواسطة المجلس وموازنته المالية المخصص بعضها لمساعدة المدارس الوطنية ، يشد أزر « كلية الروضة » شدا متواصلا ، مع توسيع الابنية والقاعات الكبرى والاروقة . وانما آتي بهذا التفصيل لاقول ان « الروضة » وشقيقتها « مدرسة النجاح » في نابلس هما المعهدان الوطنيان اللذان كانا موضع عناية المجلس الاسلامي بهما لغايات وطنية . فالشيخ نديم كان يعمل في « الروضة » و « الروضة » اصبحت « معملا » لصنع الشباب القومي وتخريجه على العقائد الصحيحة .

في اثناء وجود الشيخ نديم في القدس سنوات عديدة وهو يعلم في « كلية الروضة » ، درس الحقوق في « مدرسة الحقوق » التي انشأتها حكومة فلسطين ابتداء من ١٩٢٣ ، قبل يومنا هذا بنصف قرن . وهذا يدل على ان « ملاحنا » الفقيد الكبير ، كان في العلم طامحا الى مرمى بعيد . ولعله كان من صغره يهوى « المحاماة » فأعد نفسه لذلك . واما ما ينبغي تدوينه في مجمل سيرته هذه هو القول ان فلسطين في خلال السنوات التي قضاها فقيدنا الملاح في القدس ، رأت اشد المرارات في مكافحة سياسة بريطانيا الصهيونية المطبقة في فلسطين ، وشاهد « الملاح » المظاهرات العنيفة ، والدماء العربية تسيل من العرب على الهراوات البوليسية ، ورأى عن كثب كيف راح عرب فلسطين يعتادون الصراع على انواعه، والسجون في أحلك دياميسها ، واعتقد ان « الملاح » وهو في القدس قد وقع له ان مر غير مرة في طريق « المسكوبية » حيث « العدلية » والسجن المركزي ، فرأى في الصباح علما اسود مرفوعا في السجن ، وهذه طريقة الانكليز في الاعدام شنقا ، فانهم يعدمون الشخص ، ولا اقول « المجرم » لان العربي الذي اعدمه الانكليز في فلسطين انما اعدموه وهو «مجاهد» في سبيل وطنه ، واما المجرم والمجرمون فهم ، قبل بلفور ، وفي اثناء حكم بلفور وبعده . اذا ، استطاع « الملاح » ان يقف وقوفا صحيحا على الاساليب الوحشية التي كان الانكليز ينشؤون بها « الوطن القومي اليهودي في فلسطين » . وكانت « كلية الروضة » تقع بجوار الحرم القدسي الشريف ، وكذلك مكاتب المجلس الاسلامي الاعلى ودواوينه . وفي « الروضة » اي في قاعاتها الرحبة ، كانت تعقد المؤتمرات الوطنية ، وفيها عقد المؤتمر الاسلامي الكبير سنة ١٩٣٢ - ١٩٣٣ .

وجعل « الملاح » نفسه تلتحم ونفسية عرب فلسطين وهم في النضال الذي كان يزداد شدة مع الايام. فوقف « الملاح » على منابر فلسطين وخطب الخطب التي تقود الشعب الى حب البذل والعطاء والتضحية . وربما سار في مواكب المظاهرات، وعلى الجملة فقد ذاق المذاقات المرة كلها ، فما كانت هذه التجارب الا لتزيده صلابة في عقائده العربية .

واحسب على التأكيد انه شاهد يوم مجيء بلفور ومعه رهط مدني من كبراء الانكليز، وكوكبة من العسكريين ليزور « الحرم الشريف»، فأقفل رئيس المجلس الاسلامي الاعلى الابواب ، واوصى البوابين والحراس الا يطيعوا احدا في فتح اي باب ، فجاء بلفور وموكبه فرأوا الابواب مقفلة ، فطلبوا فلم يفتح لهم ، فرجع بلفور مخيبا ، وفي رجوعه الى بلاده ذهب بطريق سوريا وفي الطريق البرية وقعت محاولة لاغتياله اخفى الانكليز خبرها ، فلما وصل بلفور دمشق الباسلة ، قامت المظاهرات العنيفة واحيط به وهو في فندق « فكتوريا » قرب نهربردى ، فأخرجه الفرنسيون من الباب الخلفي للفندق وارسلوه الى بيروت مخفورا .

ووقعت الثورات ، وسقطت القتلى ، وعلق الشهداء في السجون ، كل هذا شاهده « الملاح » رحمه الله .

اني في الوقت الذي اكتب فيه مجمل سيرة صديقنا الشيخ « الملاح » لا اتذكر سنة انتقاله الى عمان بالضبط ولكن ارجح ان ذلك كان بعيد زيارة بلفور للقدس وكان ذلك سنة ١٩٢٥ والله اعلم . وترك في فلسطين آثارا معنوية طيبة ، فأنشأ عددا كبيرا من التلاميذ حملوا عقائده ، وشارك في الحياة الادبية الاجتماعية .

في عمان توطن « الملاح » وراح يعتاش من المحاماة في المحاكم الشرعية . فكان المحامي الذي يحب الحق ، والمحامي الذي من هذا الطراز ، متى ما عرفه الناس وعرفوا ضميره ، فيأتيه منهم من يحب المحامي الذي له هذا الضمير . فأجله جمهور الناس ، وعلا في نظرهم ، وصار مقصد المحتاجين والمستفتين ، فما رد مستنجدا ولا مستغيثا ، افتاه لوجه الله والعلم .

ولم يقبل ان ينتظم في سلك الحكومة ويكون موظف دولة ، بل آثر العمل الحر ، والمحاماة الشرعية ، مع التاليف ونشر ما يعن من فصول في الصحف .

ولما كنت اتولى ادارة الاذاعة العربية في فلسطين (١٩٤٠ ــ ١٩٤٤) في الحرب العالمية الثانية ، كنت كثيرا ما اسأله المساهمة في برامج الاذاعة من المناحي الاسلامية، وما افيد ما كان يقدم الى البرنامج ، ولما كتب علي ان اسكن عمان عشر سنين او اكثر (١٩٤٨ ــ ١٩٥٩) بعد انهيار فلسطين ، كنت كثيرا ما القاه واستمتع بحديثه وأدبه ، وعلمه وفضله . وبعد عودتي الى لبنان ١٩٥٩ تردد البريد بيننا مرات عديدة وهو جميل الخط ، واضح العبارة ، وقياسا على ما لدي من رسائله ، فرسالته تقع في صفحة واحدة عادة، فان اسهب وقعت في صفحتين.

كتبه ومؤلفاته

عندي منها جزء ليس بالقليل وكله من هداياه المباركة :

١ ــ « العقائد الاسلامية » : كتاب وصفه مؤلفه بقوله : « كتاب اخرجته في عقائدنا القيمة ، نافضا به عنها غبار الوهم والخرافات ، ومنقيا لها من ادران الجهل والشعبذات ، وقد اوجزته رجاء الامعان من دليل وما ألهمت من فهم وتحاميت فيه الجزم ، عملا بقول الله عز وجل (ولا تقف ما ليس لك به علم) . وهذا ابرز مؤلفاته وقد طبع مرارا وطبعته الاولى ١٩٥٢ وهو ٢٢١ صفحة .

٢ ــ « حقوق المراة المسلمة » وهو كتاب وصفه المؤلف بقوله : « كتاب يبين ما للمراة في الاسلام من الحقوق الشخصية والاجتماعية ، ليس فيه جمود المقلدين ولا تهور المفتونين ، ويذكر في كل بحث آراء العلماء وادلتهم ويحكم الحكم الفصل فيها » . وطبع هذا الكتاب ١٩٦٩ في عمان ولدي الطبعة الثانية منه .

٣ ــ تفسير لبعض آيات الكتاب الحكيم نشره في مجلة « الحكمة » في ١٢ عددا منها .

٤ ــ « رسالة الروح » نشر هذه الرسالة سنة ١٩٦٢ وطبعت في عمان وهي في ٤٤ صفحة من حجم صغير وقال في وصفها : « وبعد ، فهذه رسالة سميتها « رسالة الروح » وذكرت فيها موجزا من آراء القائلين بالروح الانساني والمنكرين لها وما يجب اعتقاده فيها .

٥ ــ « موجز تاريخ الرق ». كراس في ٣٤ صفحة بحث فيه موقف الاسلام من الرق وعمل الاسلام على الغائه مراعاة لرقي الانسانية . طبع ١٩٦٩ .

٦ ــ « نموذج الفضائل الاسلامية » نفذت طبعته .

وذكر هو رحمه الله في آخر « حقوق المراة المسلمة» ان لديه كتبا معدة للطبع تشتمل على :

١ ــ « المشاعر » وهي مقالات علمية واجتماعية وادبية وسياسية وانتقادية .

٢ ــ « ديوان شعر » .

٣ ــ « في الميزان » استدراكات على كتاب طه حسين في الشعر الجاهلي .

٤ ــ « سر البلاغة » .

٥ ــ « الفلاسفة السبعة » .

٦ ــ « نقدات طائر » : استدراكات على لغة الاستاذ محمد كردعلي في كتابه « خطط الشام » ، وعلى القرارات اللغوية التي قررها مجمع لغة العرب الملكي بالقاهرة والذي سمى نفسه خطأ « مجمع اللغة العربية الملكي ».

فانت ترى من تنوع هذه الموضوعات التي خاضها انه رحمه الله كان متعدد نواحي المعرفة العصرية المنسقة،

ورسالته في الروح تقرأها فكأنك تقرأ مثلها لاي باحث علمي في هذا الموضوع .

يعد الشيخ نديم الملاح في الناحية الوطنية من بناة « الرعيل الاول ». نعم ، انه لم يعمل في السياسة عن طريق الاحزاب وماأشبه . ولكنه مارس السياسة الفكرية والاعتقادية ، وكتب وناقش وحرر ونشر ، وبث المبادىء القومية في تلاميذه وبيئته ومجتمعه . وفي « نقدات طائر » تراه كاتبا عميقا لاذعا وكنت فيما مضى قد اطلعت على بعض هذا في عمان .

وعزوفه عن قبول المناصب الحكومية في الاردن ، زاد في ذيوع التماع شخصيته . ولكن الاصل في كينونته الاباء وحب الكرامة ، والجهر بالحق . ووجد فيه الملك عبدالله نمطا من الرجال محترما ، فكان يطيب له ان يمضي كثيرا من المجالس معه ، وفي هذه المجالس ، ولعبة الشطرنج تدور بينهما وكلاهما فيها فارس ميدان ، كان « الملاح » لا يهمه ان يكون هو غالبا او مغلوبا ، بقدر ما يهمه ان يكون متنبها لحديث الملك واسئلته ، فيعي ما يسمع ويستوعبه ، واما الاسئلة فيعطي عليها من الاجوبة ما يزيد في منزلته في عين الملك .

ووقع لي معه ايام صحبتنا في فلسطين ، مايقع مثله بين كل صديقين فلا يسأل احدهما الاخر مسائل لا تكون موضوعاتها من واردات الساعة او بضاعة السوق . فلم يخطر ببالي يوما ان اسأله عن تحصيله وامور اخرى . وهذه الاشياء التي تصبح واردة وقت كتابة السيرة ، يطلبها الانسان فلا يجدها . واصحاب الاستاذ الملاح في عمان ارهاط عديدون ، وهم في التفصيل ادرى مني في هذا . وادرى الجميع بسيرة العلامة المصلح الشيخ نديم الملاح ، صديقه وصفيه ، وخدنه الاول ، المربي الكبير الاستاذ تيسير ظبيان ، منشىء « معهد العلوم الاسلامية » في عمان وصاحب جريدة « الجزيرة » صديقنا الحميم ، فلعله يعطينا من سيرة الفقيد ما نحن وغيرنا بحاجة اليه .

ومن التوفيق اني وجدت في كتاب « العقائد الاسلامية » المطبوع في عمان ١٩٥٢ ان الاستاذ رحمه الله خصص الصفحة الاخيرة قبل الفهرس لموجز سيرته وترجم لنفسه ترجمة جد مقتضبة ومتواضعة تحت عنوان « نبذة في المؤلف » ومن هذه النبذة استفدت ما اذكره موجزا وهو الحقائق التالية :

١ ـ هو ـ رحمه الله ـ نديم بن محمود بن احمد بن محمد بن عمر التقي الملاح . والملاح من تجارة الملح لا من النوتي سالك البحار .

٢ ـ للاسرة فروع في دمشق وحلب وبغداد والقاهرة وغزة والشيخ نديم فرعها في عمان منذ ٢٧ سنة ، تاريخ طبع الكتاب ١٩٥٢ . وعلى هذا يكون ما ذكرنا عن ترجيحنا تاريخ انتقاله من القدس الى عمان ١٩٢٥ ، صحيحا .

٣ ـ وردت الاشارة الى نسب البيت ورجاله في الجزء السادس صفحة ٢٠٦ من « شذرات الذهب في اخبار من ذهب » للمؤرخ عبدالحي بن العماد الحنبلي المتوفي سنة ١٠٨٩ .

٤ ـ ولد الشيخ نديم في طرابلس ١٣١٠ هـ فيكون عمره بالحساب الهجري ٨٣ سنة .

٥ ـ بعد الدراسة الاعدادية في طرابلس تولى الاستاذ العلامة الشيخ محمد الحسيني تدريسه العلوم الازهرية في ست سنين ويذكر الشيخ نديم استاذه بانه « علامة هذا العصر ودرة تاجه » ، ونال شهادة منه ومن سائر علماء طرابلس .

٦ ـ يقول الشيخ نديم « ثم درست في الازهر » ولا يذكر مدة هذه الدراسة الازهرية .

٧ ـ ثم يقول بعد عبارة الازهر « ثم في معهد الحقوق المقدسي ونلت شهادة كل منهما ، وهو لا يعين تاريخا .

ثم يعود الاستاذ الملاح بالاطراء السخي على استاذه الشيخ محمد الحسيني رحمهما الله ، ونصف الصفحة في هذه الناحية .

اني لم اطلع في الصحف على نبأ وفاة الشيخ نديم ، ولا اعلم متى كانت وفاته في عمان ، قبل ان اخذت « الاديب » او بريد العرب حقا عن شهر نوفمبر ١٩٧٣ ، ولما جئت الى « برقيات ادبية » وهي الصفحات الثلاث الاخيرة وقرأت الستة اسطر الناقلة لنبأ وفاته ، كدت اذهل وصمت وطال صمتي وانا استرجع واحوقل . غاب وجه عالم فقيه ، واديب لغوي ، وداعية الى الاسلام النقي الصحيح ، ومؤلف صريح ، بوفاة الشيخ نديم الملاح في عمان رحمه الله واسكنه رياض الجنان .

رأس المتن ـ لبنان — عجاج نويهض

خماسيات شعرية

ما حيلتي باخ اذب عن اسمه
فينالني بالطعن والتشهير
اخفي مساوئه فيرميني بها
واجله فيلج في تحقيري
ضاقت به نفسي، فهل من نجوة
منه ؟ وحار بامره تفكيري
لا الحلم يلهمه الصواب، ولا انا
احتاط للتكشير بالتكشير
ان لنت بالحسنى تمادى في الاذى
واذا غضبت ابى علي ضميري

بوانس ايريس — زكي قنصل

لحظة

الدكتور لطفي عبد الوهاب يحيى

جامعة الاسكندرية

ارتقينا درج السلم قفزا
ودلفنا داخل الغرفة قفزا
وتركنا الشارع الخاوي ينساب وحيدا
في غيابات صداه
وطنين الريح في لسعة برد يتنزى
وتقاسيم صفير وصرير
زمهريري الغناء

وبقلب الغرفة السمحة دفء
وبقلبي بعد يوم عارم النشوة دفء
وبقلب الصمت دفء
حالم الايقاع يسترخي على لحظة قرب
كان في الصمت حنين ونجوم

ودهور صنعت ومضة حب
ومساء عاشق النظرة نشوان واشعار وهمس
وشذى لحن ينادينا وأصداء وجيب
ورفيف ولقاء

هذه لحظة عمر
كم نشدناها ، رأيناها صدى حلم بعيد
وقطعنا خلفها الايام نعدو
نسبق الوقت ويضنينا سباق الوقت طورا
فوق صخر ، فوق شوك
ونعيد الكرة المحمومة الاشواط نعدو
من جديد
عبر آماد ضياع وتهاويم فضاء

وقطعناها فكانت زهرة العمر رحيقا وحياة
وغنمناها وهل في العمر الا لحظة تؤخذ قسرا
ان تركناها تركنا العمر اجدابا وقفرا
أو جنيناها جنينا العمر زهرا
وابتسامات وافراح ضياء
ونجوما وورودا وارتواء

هذه لحظة عمر
طولها الف نشيد
الف اشراقة صبح
الف سمفونية تغسل جرحي
عمقها كل بحار الشوق في نشوة ابداع وخلق
عرضها كل ابتسامات الندى ...
كل ترانيم المساء

نحن يا دنياي عصفوران في عالم صخر وجليد
ليس فيها غير ما نصنعه نحن بأيدينا سويا
دفئنا ننزعه نحن من الثلج ...
ونحدوه بأيدينا سويا
عشنا نغزله نحن على متن غمام
أو على ومضة برق
أو على صرخة ريح زمهرير
بين أنواء وأصداء زئير
وضباب وعواء

نحن يا دنياي قد رمناه دفءا
وزهورا وابتسامات ربيع
فليكن دفءا وزهرا وابتسامات ربيع
وسويا ننسج الشمس على صدر السماء

اماه ... يا فلسطين

بقلم محمد حسين عبد المجيد

قصة

كان ينتظر انتهاء العام الدراسي بصبر نافذ .. وليس ذلك مللا من العلوم لصعوبتها او ميلا منه للعب والمرح ، او للبحث عن فتاة يلهو معها شأن من هم في سن الثامنة عشر : طلاب الثانوية العامة، لان من هم على شاكلته شبوا وسط جو مشحون بالصراع الوحشي الخطر بين الحرية الصريعة ، والعبودية المقيتة ..

بل كان غاية ما يصبو اليه ـ هو ـ التفرغ لعمل ظل يراوده ، ويعد له ابان الدراسة التي لم تنته عن التفكير ـ والتحليق في آفاق قد تكون صعبة المنال ، لاسيما لمن هم في سنه رغم المواد التي زاد من صعوبتها الجو المتوتر ، المشحون بخطر الانفجارات، ورائحة البارود ، ودخان الدمار الذي يلحقه العدو بأمة صريعة غدره الوحشي ، وقهره البشع ، وعنف هجماته المباغتة في كل حين ..

كان كل ذلك يزيد من التهاب مشاعره ، وشحذ حواسه، فتتشبع بالسخط ، وتطفح به ، فيسرع في التهام صفحات الكتب والمقررات ، التي كان يرى من خلالها ، وبين سطورها ما يتوق الى ان يكونه، وما يصبو الى الانصهار في بوتقته ... البوتقة التي انصهر ابوه ـ ومن هم على شاكلته ـ فيها من قبله .. فخرجوا من ديارهم ، وقد نفضوا عن انفسهم غبار الخوف ، حيث كانوا متقوقعين ، والبؤس يطل من عيونهم ، بل مزقوا اسلاك الاسوار الشائكة ، التي كانت مضروبة من حولهم ، وشقوا صدور الخيام السود منقلبين من تعساء مقهورين الى مناضلين ، للذود عن حياض ارضهم السليبة ..

هكذا كان يعيش ـ متطلعا ـ بين ضفاف الكتب التي تحولت الى ساحات قتال ، وميادين حرب ضروس .. سطورها نار .. وكلماتها وهج .. وحروفها بارود .. ويظل كذلك الى ان يرتج عليه الامر، فيدور رأسه ، ويرتعد بدنه، فيغلق الكتاب ويصيح متسائلا :

ـ متى يكون ذلك ..؟ متى ستتحول الارض ـ كلها ـ الى شراك تفتك بالعدو ، والسماء الى صواعق تنقض عليه فتهلكه ..؟

ثم لا يلبث ان يهرع الى رفاقه، ويحملق فيهم ، باحثا عن شيء، يأمل ان يراه في عيونهم ..

ـ ماذا كان يدور بذهنك اليوم وانت تذاكر ..؟ الم تحن نفسك الى الجولان ، والقدس الكسيرة..؟

ـ مهلا .. فنحن هنا في غزة يا منصور ..

ـ لا تقلق .. ان غدا لناظره قريب ..

والقى بحفنة من الخراطيش بين يديه .. فدسها منصور في جيوبه، وخرج قاصدا داره ..

كان ينجز دروسه كلها بالنهار ، حيث الليل ـ هناك ـ دامس ، فيستحث زملاءه، وهم يستحثونه، ليجدوا فسحة من الوقت ، حيث يهبطون الى القبو ، ومعهم مذكرة يعدها اكفأهم في الكيمياء ، ثم يبدأون في العمل ، وهم حريصون ـ كل الحرص ـ على الا يشب حريق ـ آخر ـ في القبو كذلك الحريق الذي شب ذات يوم ، وهم يجرون احدى تجاربهم على تفجير احدى قنابل الملوتوف الحارقة ...

ـ كم عدد القنينات التي حصلت عليها هذه المرة يا منصور ..؟

ـ عشر قوارير فقط .. وهذا الزيت جمعته امي من جاراتها ..

انزعج بعض الرفاق لدن ما علموا أن أم منصور على علم بما يقومون به .. وصاحوا مستنكرين .. لم يهتج منصور،ولم يغضب من زملائه، بل انبرى يوضح لهم الدور الذي قامت به امه ، وما يجعلهم يثقون بها كل الثقة ..

★

اذ لم يقتنع ابو منصور الى الحد الذي جعله لا يقف في طريق ابنه فحسب ، بل الى التعاون مع الخلية الصغيرة التي كونها ابنه ايضا تلك الخلية التي لم تجد مناصا من الاستعانة بخبرة ذلك الفدائي العملاق الذي وقف مشدوها امام زوجته ، وقد ابتدرته ، بعد ما عاد من احدى العمليات ذات ليلة :

ـ انت الذي يمنع ابنه من عمل كهذا ، وأبسط شيء يقول انه لماذا لا اكون فدائيا مثله ..؟ وهل وقف احد في طريقه امام ارادته ..؟

انعقد لسان ابي منصور ـ في تلك الليلة ـ لمباغتة زوجه له، ولذلك القرار الذي اتخذه ابنه ، مستشفا من ورائه ان الام آزرت ابنها ، وجعلته يتمرد خارجا عن طوع والده، لذا أحس بالضيق من زوجه،ووقف متحيرا امامها ، تلك التي كانت ساهرة تزن الامور المتضاربة في رأسها ، فراحت تتشاحن مع زوجها الذي تراءته امامها من خلال جفونها المسبلة ، وهي تغفو ... وهذا ما جعلها تلقى زوجها ـ عند عودته ـ وهي لا تزال محتدمة ، وفي قمة انفعالها مع طيفه ... وامام ذلك الفت نفسها معلقة في سماء الغرفة بين ذراعين حديديتين الى ان كاد يلقى بها زوجها على الارض ، لبهشم

ضلوعها ...

غيرانه ما لبث ان تخلى عنها عندما لاح له ابنه في حلق الباب ، بعدما هب من نومه وهو لا يزال سابحا بخياله – هناك – حول معسكر الغازي ، غارقا بفكره في مصير البؤساء ، المرتمين في الظل ، والمغبة تفري حشاياهم ، والامل يخبوضوؤه في عيونهم المقرحة .. فتنمر ابو منصور ، ثم اندفع صوب ابنه قائلا:

– اتنوي تنغيصها اكثر مما هي منغصة ..؟ هل نسيت ان كلا له دوره ..؟

– لن ننتظر الدور .. وانه ليحز في نفسي ان تكون انت اول من يقف في طريقي .. ومن خلال العبرات استطرد منصور قائلا :

– المدفع والقنبلة يطمسان السطور أمام عيني كلما فتحت كتابا .. في النوم لا يرافقني سواهما .. وفي الطريق لا رفيق لي – على كثرة الرفاق – الا هما .. لا .. فأنا لست اقل شأنا من ابن النجار، الذي تبسط عليه جناحيك .. اني أشعر بالعار يلاحقني اينما سرت .. أبتاه .. أيام قليلة ، وسينعقد الامتحان .. ولسوف نبدأ بعد ذلك مباشرة.

– انا امنعك ..

– أبتاه .. المدفع في يدك ، لن يثنيني غيره ..

وخر على ركبتيه .. فحذت الام حذوه ، وصاحت قائلة :

– انا فداؤك يا ولدي ..

فدوى صوت ابنها عاليا ، حتى خاله ابوه كما لو كان قد صدع الجدران من حوله ، وقد انطلق يقول :

– لا .. بل انا فداؤك يا اماه.. كلنا فداؤك يا اماه ..

★

وهنالك التفت منصور الى رفاقه الذين كانوا يستمعون اليه وهم يواصلون تعبئة زجاجات «الكوكتيل ملوتوف» على ضوء شمعة ، بينما آخرون يقومون باعداد المواد اللازمة لصنع المتفجرات ، وقوالب المواد الناسفة ، التي حذقوا صنعها على يدي الفدائي العملاق ، الذي أخذ يمدهم بمسحوق البارود والقنابل اليدوية ، بل والقيام بتدريبهم منذ ان خرت الام وابنها على ركبهم ، حيث لم يملك الفدائي العملاق الا ان احتوى زوجه وابنه بين ذراعيه وهتف قائلا :

كلنا فدائيون ..

وتحول القبو الى ميدان يتلقى فيه منصور اشق التدريبات على يدي والده .



محمد حسين عبد المجيد

★

وبينما منصور وزملاؤه منهمكين في عملهم – ذات ليلة – اذ بهم يتناهى الى آذانهم هدير العربات المصفحة لدورية اسرائيلية ، فصاح منصور مستحثا .. فأسرعوا في اخفاء ما انجزوه ، معتمدين على حاسة اللمس ، بعدما اطفأوا الشمعة .. على حين ذهبت المدافع الرشاشة تعربد في احشاء الدور بالمنطقة العزلاء ..

انكمشت أم منصور ، بعدما خرج الفتيان ، وقد احتوت ابنها بين ذراعيها ..

– مالك تمسكين بي هكذا يا أماه ..!

وانصت مليا .. وما لبث أن قطع صمته بقوله – وهو يفقأ عين الظلام بأصبعه :

– يقينا ان هذا مدفع ابن النجار .. لقد اصبح في مقدوري تمييز صوته منذ ان خرجت معه ذات ليلة وقد انقض على دورية كانت تحاول النيل من سيدة لم تمتثل لامرهم..

حاول انتزاع نفسه ... تشبثت به امه ..

– عجبا .. لقد كنت..ولاتزالين أول المشجعين لي .. آه لو عرف والدي ذلك ، بعدما أتعبته في تدريبه لك ، لاتهمك بالجبن والخور ..

– صه .. أسمع صوت همهمة..

– انه عدنان .. أغلب ظني انهم يطاردونه .. لنفتح له ..

– اخشى ان يكون مخلب قط يا منصور ..!

– عدنان جريح يا اماه ..

اختطفت الام الفدائي الجريح من الخارج ، بينما اندفع منصور متلمسا طريقه الى القبو . وفي لحظات كان قد عاد حيث الجريح .. وعرف منه انه هاجم دورية بقنبلة ، بينما كان افرادها يوسعون اباه العجوز ضربا ، لاجباره على الصعود الى العربة ، لاتهامه بنشاط فدائي ..

لهث منصور .. وبنبرات غاضبة اعلن أنه لن ينتظر الصباح ، بل سيذهب شاقا طريقه في صدر الظلام .. وقد حمل غرارة مليئة بالمواد الناسفة والمتفجرات ، ثم خرج ، وقد تسلح بعدد من القنابل، متخذا طريقه عبر أسطح المنازل..

وما ان اطمأن الى الطريق حتى هبط مفكرا ما اذا كان يواصل طريقه حيث يحضر الطبيب لينقذ الجريح ..أم انه ينطلق ، ليلحق بالدورية..

قبل النصر الاخير

تشرين عاد ليمنح الاحزان اذنا بالسفر
ليضخ أسباب الحيا ة ويمحي فينا الضجر
ليزيل من أعماقنا وجع المرارة والخدر
ويعيد تكوين الملا مح غائلا فيها الحجر

ولد النهار، وأورق الحلم المخبأ في الصدور
وقميص جندي يزم جر في متاهات العبور
ورمال سيناء استعا دت دفأها رغم الفرور
وأنا وأنت وموعد في العمر يختصر العصور

تشرين عاد، وأفقنا متماوج الالوان
ورست على الجودي المرا كب وانجلى الطوفان
وأنا وأنت وحفنة من تربة الجولان
ومواسم للفرح قد عبرت من النسيان

دمشق — سلافة العامري

على انه ما انفك يفكر الى ان الفى نفسه بالقرب من دار الطبيب، والنار تجد في التهامها .. وقد استيأست الخلائق من عودة الطبيب، لاتهامه بمساندة الفدائيين، ولعلاجه احدهم ..

— آه .. لقد اجبروه على الخروج والتسليم لهم بعدما اشعلوا النيران في داره ..

قال ذلك .. وقد قفل عائدا .. والحقد يطحنه بين اضراسه الهائلة ... وليلحق بالدورية فهذا غير محتمل .. اما انه يسبقها فهذا في استطاعته .. وهنالك سيتمكن من دس الالغام لها .. وعليه طفق يعدو، مهرولا عبر درب ضيق، وبعبوره له يمكنه ان يسبق الدورية التي ستأخذ دورتها حول المنطقة..

وفي الظلام المضطرب عند منعطف بالطريق، تحت تل صخري شرع يدس الالغام، ويضع العبوات الناسفة باحكام ..

وعندما فرغ من اعداد الكمين، صعد التل، وربض من فوقه.. وقد صمم الا يبرح المكان الا بعد ان ينتقم لزميله الذي خلفه وراءه، يعاني سكرات الموت ... وحانت منه التفاتة حيث معسكر المغازي للاجئين التعساء، وخيامهم التي تلوح قممها من بعيد، وقد انسكب عليها ضوء شاحب لقمر وليد .. فبدت الخيام كما لو كانت مواكب امهات اتشحن بالسواد، ورؤوسهن يجللها الشيب، وقد تقوقعن تحت ثقل الاحزان والهم الكئيب ..

وفيما هو قابع في انتظار قافلة الغدر للعدو الشرس اذ به يسمع هدير عربات الدورية .. وفجأة قفزت الى ذهنه فكرة جعلته يرتعد من قمته الى اخمصه ..

— اي عار سيلحق بي ما لم تنفجر الالغام، ومرت القافلة بسلام، بعدما أعملوا سلاحهم في احشاء الدور واهليها، فباتت مثخنة بالجراح.. ؟ أماه .. يا فلسطين.. اذا لم تنفجر الالغام، فسأشتبك معهم في معركة ضارية .. ولكنني نفذت كل شيء بدقة كما تعلمت ..

واقتربت الدورية .. فأسرعت دقات قلبه .. وقد عقد العزم على خوض المعركة .. فانتزع قنبلتين من حزامه .. ومرت بذهنه تلك القواعد التي تعلمها من والده.. ثم ركز بصره على هدفه الزاحف نحو حتفه ...

وفي لحظات استحالت العربتان اللتان كانتا في المقدمة الى قطع تناثرت في الجو أثر انفجار الالغام التي لم يتوقع الفدائي انفجارها ... تبدد الخوف فجأة فانقض على بقية الدورية بسيل من القنابل، فتوهجت قمة التل الى ان نفذت ذخيرته ..

وهنالك تناهى الى اذنيه صوت مدفع — يعرفه — اخذ يعربد في ضراوة، مقتنصا كل من كانوا جادين في الزحف نحو التل ..

وعلى الضوء المنعكس من النيران التي اخذت في التهام البقايا من معدات العدو، كان ابو منصور قد اهتدى الى ابنه الجريح، ثم شرع يهبط به من التل، وضوء النهار — يتحرر — من ربقة الظلام ...

القاهرة — محمد حسين عبدالمجيد

رشيد الذوادي مؤرخ اعلام بنزرت

بقلم رضوان ابراهيم

***

التربة الادبية في تونس تحمل من عناصر الخصوبة ما يبشر بعطاء وفير ، كما تحمل من ملامح التجديد ما يوحي بالاستمرار في تعميق مجرى التيارات الفكرية الاصيلة .

وشباب الادباء والمفكرين في تونس يسيرون بخطوات ثابتة نحو التأصيل والترسيخ ، وتمكين الاساس ، والارتفاع بالبناء .

ومع استمرار الانتاج التقليدي في الشعر والقصة ، ومع ارتفاع مد التجديد في هذين المجالين فان الانتاج الادبي في مجال التعريف بالارض والبشر يتخذ لنفسه مجرى متميزا ، يمنح الاساس التونسي قوة وطاقة على الاحتمال في معركة البناء .

فالتعريف بالبلدان والاعلام يكاد يزحم عليك الطريق في كل اقليم وكل بلد من بلدان تونس .

لكل بلد تقاليده ومواسمه واعياده وطقوسه ، ولكل مناسبة ندوة وملتقى لاحياء المعالم والشخصيات والامجاد .

ولكل مدينة ـ بل لكل قرية ـ دورها واعلامها الذين وهبوا حياتهم لاثرائها ، وبذلوا نفوسهم لتحريرها ، واقاموا فيها للعلم سوقا ، وللفكر منارات .

وعن كل اقليم وكل مدينة وكل قرية كتاب او باقة من الكتب ، تهدى اليك في سلة معطرة ، كما تهدى الزهور والعطور والفواكه والتحف .

واشهد أنها ليست مطبوعات دعائية او سياحية ، لكنها دراسات علمية جادة ، دبجتها أقلام متخصصة ، مؤرخة ومتحمسة في نفس الوقت .

تونس العاصمة أشبه ما تكون بالام في عرس بناتها ، تبهر بأضوائها ، وتتيه بمسارحها ومغانيها ، وتتبرج بزينتها ، وتشغل بما تشغل به عواصم العالم التي تتجدد فيها الحياة كل لحظة ، وحتى المؤسسات التاريخية والمتحفية فيها تكاد تتجدد مع ما ينجع كل يوم من جديد.

اما عبق التاريخ وجلال العتق فهو هناك : في القيروان ، حيث يشع جامع عقبة ، ويرتفع ضريح البلوى، وتستريح فسقية الاغالبة ، وتنتشر الحرف التقليدية في أسواقها ذات الماضي العريق .

وهناك على الطرف الآخر مدن تتمجد بعلمائها وادبائها ، مثل قفصة ، كبرى مدن الجنوب الغربي . وهناك سوسة ، عاصمة الساحل ودرته ، وثالث مدن الجمهورية .. وهناك المنستير ورباطها التاريخي ، وقصرها ومطارها .. وهناك المهدية عاصمة البلاد القديمة ، وقلعتها الحصينة التي انطلق منها الفاطميون نحو الشرق . وهناك .. وهناك ، كل مدينة لها مجد ، وكل مجد له تاريخ .

لكن المدن التي تحتل المكانة الاولى من اهتمام الشعب التونسي وتقدير الشعوب المحبة للحرية والسلام واكبارها ـ هي مدن البطولة ، وقد احتلت البؤرة منها مدينة بنزرت ، التي تنال ـ الى جانب شرف التمجيد في القديم ـ شرف معارك التحرير الاخيرة التي جرت ضد الغزاة المعاصرين ، وآخرها المعركة الكبرى التي كللت بالنصر ، واحرزت شرف التحرير لها ولكامل التراب التونسي ، بين عام ١٩٦١ وعام ١٩٦٣ ، ومن يومها رفعت رأس تونس ، ورفعت قدر العرب ، ورأس البلاد المناضلة، اذ اضافت الى سجل البلاد المتحررة بلدا جديدا ومجيدا .

فعلام يدل تمجيد التونسيين لمدنهم ومحاولة تخليدها والاشادة بها على تلك الطريقة الفريدة ؟

لقد خرجت تونس من محنة كان ترابها فيها هو المستهدف من الغزو ، كان المستعمرون يريدون استيطانها والحاقها بتراب البلاد الغازية ، وبترها من التراب العربي الافريقي . ولهذا تمثلت فرحة الاستقلال والحرية في تمجيد هذه المدن والقرى ، واتخذ الوفاء لها شكل الدراسة والبحث عن امجادها الغابرة ومعطياتها اليوم وغدا ، واتخاذها أعلاما على النضال المنتصر ، والاشادة ببطولاتها وابطالها ، شكرا لله على هذا النصر ، وتوعية للاجيال كي تستمسك بحريتها واستقلالها وتقدمها ، لا تسمح للاستعمار مرة أخرى ان يدنس ترابها او يعوق تقدمها .

من اخص خصائص تمجيد هذه البلاد تسجيل البطولات التي انجبتها على توالي العصور في ميادين العلم والمعرفة والثقافة والفكر والوطنية .

والكتاب الذي يقدمه الينا رشيد الذوادي اليوم نمط من التمجيد العلمي غير المتعصب ولا المغالي ، فكتابه « اعلام من بنزرت » يضم باقة من العلماء الذين أنجبتهم هذه المدينة على توالي العصور .

والذوادي شاب على قمة الشباب ، هادىء الطبع ، بعيد عن الاضواء ، يعكف على عمله في غير ضجيج ، أخلص ولاءه لمهنة التعليم ، وأحب مسقط رأسه بنزرت كل الحب ، ومن هذين ارتسم له اطار هذا العمل فاتخذ كتابه معرضا لتحليل الشخصيات التي انجبتها بنزرت ، والتي مارست مهنة التعليم ، ومن هذا نجده يتحدث عن شخصياته بحب وتعاطف ، ويشخص دقائق حياتهم

تشخيص الخبير . ويبرز بدايات تعليمهم ومنابع ثقافتهم ونضالهم باصرار في سبيل المبدأ ، والاضواء التي أفاضوها على بلادهم في ميادين العلم والثقافة والاصلاح والتحرر واقامة العدل وتنوير البصائر – فتلك سمات المعلمين المخلصين لمبادئهم ، وتلك هي العناصر التي يحرص كاتب التراجم على ابرازها في شخصياته اذا كان في مثل موقف الذوادي ، خاصة اذا كانت شخصياته ممن انبتهم التراب الذي ما زال يمشي عليه ويتنفس في أجوائه .

وقد يبدو أن الكاتب بهذا التحديد يضيق دائرة بحثه ، ويجد قلمه محتبسا بين ابناء الوطن وابناء المهنة ، فلا تتأتى له شخصيات ذات نشاط يدور حوله موضوع ذو قيمة ، وقد لا يجد المراجع التي تسعفه بالقدر الكافي لادارة البحث .

قد يبدو ذلك صحيحا من بعض الوجوه ، وقد يكون مجرد توقع واشفاق نحو كاتب نقرأ له لاول مرة ، ولكننا حينما نرافقه في هذا الكتاب نجده قد اجتاز هاتين السلبيتين بثقة واعتداد ، فقد تعمق حياة شخصياته ، ومنحها من النبض الحيوي ما جعلها تتعامل مع القارىء بشكل يكاد يكون مباشرا ، ومنح القارىء فرصة التعرف الكامل على هذه الشخصيات .

والذي منح تراجمه هذه الحيوية وهذا النبض انها لم تكن مجرد معلومات يسردها عن حياة أبطاله ، ولكنها كانت رصدا كاملا للاجواء والتيارات الادبية والفكرية والسياسية التي انبتت هؤلاء ، ورافقتهم في خضم الرحلة ، وسيرت بهم سفن تونس من منبع تاريخها الى مصبه ، فجعل منها قطعة نابضة من تاريخ تونس ، تسير على الاقدام ، وتبطش بالايدي ، وتفكر وتناضل ، لتنقل البلاد وتنتقل بها من عالم الظلام وعالم التخلف الى عالم النور والحضارة .

لقد عرض المؤلف في هذا الاطار شخصيات بنزرتية خالصة ، فعايشها على بساط التاريخ منذ القرن الرابع عشر ، والتقى بها على ارض الواقع في ايامنا هذه ، فأخذ منها وبادلها الفكر والرأي .

بدأ المؤلف لقاء التعارف بيننا وبين أبطاله بمحمد بن قاسم البنزرتي المتوفي عام ١٣٩١ ، وانتهى بالهادي زمزم ، المتوفي عام ١٩٧٠ ، فقدم لنا على مائدة هذا التعارف ست عشرة شخصية ، من بينها شقيقه الشاب القصاص الاديب المربي المناضل محمد الذوادي ، الذي استشهد في ساحة الشرف بقذائف النابالم في معركة الجلاء عن بنزرت عام ١٩٦١ ، عن ثلاثة وعشرين عاما .

قد يكون من بين من تولى التعريف بهم جنود مجهولون ، ولكنهم جميعا أسهموا في اقامة البناء الثقافي واللغوي والادبي والديني في واقع تونس الحرة المعاصرة .

من هؤلاء عبد الله البحيري ، المعلم والخطيب والقاضي ، من اعلام القرن الخامس عشر ، ومصطفى بن عبد الكريم ، اللغوي المحدث والمفتي والفقيه الذي عاش في القرن السابع عشر ، وعلي اليشرطي الذي كان من أعلام الدولة الحسينية في القرن التاسع عشر ، والذي عاصر الاصلاحات المالية التي قام بها الباي أحمد الثالث، وهجرة الجزائريين الى تونس بعد احتلال الجزائر ، وسمع قولة نابليون : « اذا تعود العرب الحرية والعدالة فلن يكون بيننا وبينهم سلام في الجزائر » ، وعاصر اصلاحات الوزير خير الدين ، وهاجر الى الحجاز ، وزار القدس ، واقام في عكا ، وشغل بالتصوف ، وعمل على نشر طريقة أبي الحسن الشاذلي ، كما اشتغل بالسياسة، وزامل الامير عبد القادر الجزائري ، حتى أصبح معدودا من قادة الفكر في المشرق .

اما عمر بن الشيخ فقد ولد في العقد الثاني من القرن التاسع عشر ، وتوفي في اوائل العقد الثاني من القرن العشرين ، فأدرك عهد محمود باي ، وعاصر ثورة علي غذاهم ، وخروج البايات على الحكم العثماني ، وقد لفت نبوغه المبكر كبار الاساتذة ، فاختاروه للتدريس بالزيتونة عقب تخرجه منها ، واختاره الوزير المصلح خير الدين عضدا له ، وعينه مستشارا للمعارف ، كما عينه في لجان تصفية الفساد السياسي ، وتولى مناصب الافتاء والتدريس وكان شديد الاعجاب بعمر بن الخطاب في سيرته ، كما أعجب بالثورات الاجتماعية التي قامت في الدول الاسلامية ، ومن بين زعماء الاصلاح كان معجبا بمحمد بن عبد الوهاب ، والافغاني ، ومحمد عبده ، وكان مهتما بالتاريخ والحديث والاسانيد ، ومع انه لم يترك مؤلفا واحدا الا انه ترك في الفكر التونسي تيارا مرموقا .

والعربي النجار المتوفي عام ١٩١٦ لم يتلق أي نوع من التعليم ، ولكنه كان من مشاهير الشعراء الشعبيين ، نادى في شعره بالاصلاح والوطنية .

وعلي بوشوشة المتوفي عام ١٩١٧ بدأ تعليمه في بنزرت ، وواصله في الزيتونة والصادقية ، وأتمه في انجلترا ، وكان ثائرا لامعا منذ شبابه ، وكان متضلعا في اللغات الاجنبية ، وكان امتدادا لحركة خير الدين ، لكن عودته من انجلترا الى تونس جاءت مع بداية الاحتلال الفرنسي ، فابتعد عن الاعمال الرسمية ، وأنشأ أول جريدة غير رسمية ، هي جريدة « الحاضرة » التي ظلت تصدر من عام ١٨٨٨ حتى توقفت عام ١٩١٥ ابان الحرب العالمية وكان ذكاؤه وحيلته واعتداله مما جنب هذه الجريدة أخطار التصادم مع السلطة ، وان انكر عليه المواطنون هذا المسلك .

وادريس الشريف المتوفي عام ١٩٣٦ عرف بفتاواه المشهورة ضد الاحتلال الفرنسي ، وعاصر واقعة الزلاج عام ١٩١١ ، واحداث مقاطعة الترام عام ١٩١٢ ، وثورة خليفة بن عسكر ١٩١٥ – ١٩١٩ ، وتأسيس الحزب الدستوري بقيادة عبد العزيز الثعالبي ، وقيام الحركة

النقابية بزعامة الدكتور محمد علي ، والحزب الدستوري الجديد بزعامة الحبيب بورقيبة ، وقد كانت دروسه وفتاواه ومقالاته واشعاره تملأ انهار الصحف في تونس وبلاد المشرق ، وقد ترك كثيرا من المؤلفات الاجتماعية والتاريخية والدينية والوطنية واللغوية والصوفية ، كما ترك ديوان شعر تناول فيه مختلف الاغراض .

أما سليمان والي المتوفي عام ١٩٦١ فقد شهد كل هذه الاحداث ، كما شهد ظهور الجمعيات الادبية والتمثيلية ، واشتغل بالتعليم والشؤون العدلية في مسقط راسه ، واسهم في تأسيس الجمعيات الثقافية .

وحمودة بو قطفة المتوفي في نفس العام معلم وكاتب وخطيب سياسي وديني ، وشاعر ومتضلع في اللغة ، وكان دائم التصدي لكشف اعمال الاستعمار في بنزرت .

ومحمد علي العنابي المتوفي عام ١٩٦٢ درس في باريس بعد بنزرت وتونس ، فحصل على اجازة الآداب من السربون ، واجازة الرياضيات من كليتي العلوم والرياضة ، ودبلوم العلوم السياسية من المدرسة الحرة ، وعرضت عليه جامعة السربون منصب الاستاذية اذا تخلى عن تونسيته ، فرفض ، وعاد الى تونس ليمارس نشاطه من خلال التجمعات الثقافية ، فانشأ كثيرا من الاندية الطلابية ، وعلى اثر الاستقلال سعى لاشراك تونس في الوكالة الدولية للذرة ، ومثل تونس في مؤتمراتها ، وانشأ في تونس مصلحة الابحاث العلمية والطاقة الذرية ، واختير مديرا لوكالة الطاقة الذرية بتونس .

وكان خميس ترنان الذي توفي عام ١٩٦٤ من مشاهير الموسيقيين العرب المعاصرين ، تتلمذ عليه خيرة فناني تونس ، وقام على حفظ التراث الموسيقي ، وهو ملحن موهوب ، قدم أعذب الالحان لخيرة المطربين والمطربات ، وهو صاحب الفضل في اقبال الشباب التونسي اليوم على المألوف والموسيقى الاندلسية ، وقد عاش في خدمة التراث ، والتوفر على ابتكار الجديد حتى وهو في السبعين من العمر .

وعلي الخماسي المتوفي عام ١٩٦٧ عن ٩١ عاما اشتغل بالتعليم مبكرا ، وقام بانشاء المدرسة القرآنية في بنزرت ليعلم النشء الدين واللغة العربية بازاء التعليم الاجنبي الذي اشاعه الاستعمار ليقضي على لغة الوطن ودينه ، وقد اهتم بشتى الوان الثقافة والعلوم الى جانب التربية ، وله مؤلفات دافع فيها عن الامة العربية ولغتها وتاريخها ، وله كتب في الجغرافيا والتاريخ والاجتماع وتاريخ بنزرت ، وقد اهتم بتأسيس الجمعيات الخيرية ، وجمعيات الطفولة المشردة ، ومما يروى عن جراته السياسية انه وجه رسالة الى القائد الالماني في الحرب العالمية الثانية يطلب اعترافه بحق تونس في الحرية والاستقلال عندما تضع الحرب الدائرة بين الحلفاء والمحور على أرض افريقيا أوزارها .

وقد كان محمد الطاهر الخماسي المتوفي عام ١٩٧٠ متأثرا بمدرسة خير الدين الاصلاحية ، وجمال الدين الافغاني ، ومحمد عبده ، وعبد الرحمن الكواكبي ، وقد تتلمذ على مكتبات تونس وصحفها ، وعاش فترة تأسيس الحزب والثورات الشعبية ، وكتب في الصحف ، واشتغل بالتعليم والعدل والخطابة ، وترك بعض المؤلفات الدينية والتربوية والاجتماعية والسياسية .

أما آخر هذه الشخصيات فهو الهادي زمزم الذي توفي في نفس العام عن احدى وثمانين سنة ، لقد عاش في بيئة اسلامية وبعد حصوله على شهادة الزيتونة في القراءات قام بالتدريس فيها ، ثم اشتغل بالخطابة والامامة والاصلاح الاجتماعي في قريته وبين مواطنيه ، حيث قضى أخريات حياته .

وبعد .. فهذه باقة من الرجال تشرف بها أمة بكاملها ، فكيف اذا كانت تنتسب الى بلدة ليست من كبريات بلدان تونس ، لكنها فرضت كبرياءها على التاريخ .

فهؤلاء هم بناة تونس الحقيقيون ، بناة البشر ، اغلى ما وهبت الحياة . هؤلاء هم معلمو بنزرت مدينة الكفاح والتحرر والسلام ، تمجدت بهم وتمجدوا بها .

هم جميعا من بنزرت ، وهم جميعا معلمون ، نظمهم المؤلف في سلك واحد ليصنع منهم عقدا مضيئا حباته المناضلون الابطال ، وكأنه بذلك يؤدي ضريبة الولاء للمواطنة والولاء للمهنة في وقت واحد .

لقد أفلح في تشخيص كل منهم بملامح أصيلة ، ميزته بدقة عن اقرانه ، لم تلتبس شخصية بأخرى ، ولم تطمس واحدة منها معالم أختها ، استل بعضها من غياهب التاريخ ، وعايش بعضها كامل المعايشة ، ولكنه تعاطف مع الجميع بعدالة .

وتلك ميزة كاتب التراجم الاصيل ، الذي لا تتشابك في اصابعه الخيوط ولا تتعقد ، ولا تترك مرسلة مسيبة ، بل ينساب كل منها الى الموضع المرسوم له لتؤدي دورها في صنع النسيج الانساني الرائع ، وتكاد تبعث الشخصية من جديد .

وأروع النماذج التي تألق فيها المؤلف شخصيات عمر الشيخ ، والعربي النجار ، وعلي بو شوشة ، وقد تعاطف القارىء بقوة الى القصاص الشهيد محمد الحبيب الذوادي ، الذي اصبح عليه واجب تقديمه مرة اخرى من خلال تراثه .

وبالتأكيد هناك شخصيات جديدة برزت من خلال معارك بنزرت الاخيرة ولا بد ان تظفر من المؤلف بلمسة حنان ، ليواصل بها تعبده في محراب بنزرت .

ان رشيد الذوادي اسم قلما تسمع به كثيرا في زحمة الادب التونسي لانه يعمل بلا ضجيج ، لكنه بهذا المستوى من كتابة التراجم قد فرض نفسه ككاتب سيرة من الطراز الاول وهو يؤدي للقارىء واجب التعريف بأبطاله الامجاد في معركة الحياة والتقدم .

رضوان ابراهيم — **القاهرة**

●

ضحكت (لميــاء) لما ان رأت — لحظ عيني لصباهـا التفتـا
ثم قالـت (لهــا) منكـرة — هل رأينا مثل ذا الشيخ فتى
شـائب الرأس ومختـل الخطا — وعليـه الدهر بالعجز أتـى
لم يزل للحسن يصبو هاتكا — حرمــة الشيب جريئا !. لمتى

حكمــة ما انــا عنها غـافل — لا .. ولا واللـه ما بي من هوى
انمـا ينظر طرفي راثيــا — للشباب الغض في جسمي هوى
فيرى كل مـــدل نـاعم — مـائس القد وريـان الشوى
غــافلا .. غرا .. علا أنفاسه — حـاسب العمر وغـلاب القـوى

كنت يوم الامس..والامس القريب — أملـك الدهر بقلبي كلـه
أنهب الارض بركضي فوقهـا — معجبـا .! طرفا يباري ظله
وألوف الزهر تـرنـو في الربـا — فـيريها القلب كبرا دالـه
حلم مـر .! وكم من خـاطر — مر بي اليوم فؤادي مله

أنـا يـا (لمياء) ودعت الصبا .! — طاويـا قلبي على حب جريـح
بمـدى الحسن الذي لم يعنه — هاتف الاسلام او صوت المسيح
فخشيت الحب في هـذا الـورى — وعشقت الحب في الكون الربيح
كـون خلد ليس في أرجـائه — يسكن الشيطان يهذي او يصيح

قد بدأت العمر اشدو للهـوى — داخـل الاضلاع لي عود ونـاي
بفـؤادي كلمـا جل الجـوى — طائر يسبق بالخفق خـطاي
وعلى وجهـي ابتسام ساحر — آزرتـه بانفراج شفتـــاي
عزة في النفس تخفي شجوها — وانا الغارق في بحر شجاي

كان في ماضي لي سمت الشيوخ — واثق النظرة .. موفور الخجـل
امضغ الالام في عزم بـه — أكبت الفرحة او موت الامل
سابقا عمري بحزم حابـس — مرح الانفـاس او صوت الملل
أو يصبو اليوم قلبي بعدما — أحدقت بالنفس خيات الاجل

ظلمتني يا (مها) لميـاء في — مـا ادعته من هـوى مد البصر
ذكريها أن للحسن صـــدى — ان مضى للعود يهتز الـوتر
وحنين الشيب للماضي أسى — وحديث الشيب في الحب خبر
قصة كانت.. فولت .. فانتهت — ففدت ذكرى.. وسطرا من أثر

الرياض ــ كلية اللغة العربية — عزالدين علي السيد



حارث طـه الراوي

من ذكرياتي الادبية

بقلم حارث طه الراوي

* * *

مع محمد كرد علي

في السابع من آب ١٩٧٣ وقفت في ساحة مجمع اللغة العربية بدمشق وانا احاول ان اكبح جماح عبرات ترقرقت بل تأججت في عيني ، فقد رأيت لوحة مثبتة بالجدار تحمل الكلمات التالية : « قاعة الاستاذ الرئيس محمد كرد علي » ، فعادت بي الذكرى الى ٢٤ عاما الى الوراء ، الى آب ١٩٤٩ عندما اتيح لي ان اقابل استاذ الجيل المرحوم محمد كرد علي في غرفته المقابلة للقاعة التي تحمل اسمه الكريم في الوقت الحاضر ...

انها دمعة الوفاء يهديها القلب الى العين لتقدمها هدية متواضعة لارواح العظماء الراحلين ..

قبل ان اسافر الى سورية ولبنان في صيف ١٩٤٩ اوصاني الاستاذ مصطفى علي ، صديق المرحوم والدي ، ان احصل من المجمع العلمي العربي بدمشق على نسخة من مجلة المجمع التي نشرت مقال الاستاذ محمد بهجة الاثري عن المرحوم والدي . فانتهزت هذه الفرصة لزيارة صديق والدي الحميم العم الكريم محمد كرد علي ــ رحمه الله ــ بعد عودتي من لبنان في آب من السنة المذكورة في منزله بالروضة حيث استقبلني نجله الكبير ورحب بي كثيرا واجلسني في غرفة الاستقبال الواسعة المتصلة بمكتبة الاستاذ الرئيس الكبيرة ، ثم ذهب الى والده وعاد ليخبرني بأنه متوعك ويسره ان يستقبلني في صباح غد في مكتبه بالمجمع العلمي العربي اذا من الله عليه بالعافية ..

وجلست أتجاذب اطراف الحديث مع كرد علي الابن ثم نهضت والقيت نظرة فاحصة على مكتبة (١) أبيه العامرة فألفيتها زاخرة بالكتب العربية والفرنسية القديمة .

في صباح اليوم التالي ذهبت الى المجمع العلمي العربي فاستقبلني الاستاذ محمد كرد علي هاشا باشا واجلسني على كرسي بالقرب من منضدته . واستهل ــ رحمه الله ــ حديثه بالثناء الوافر على علم وخلق المرحوم والدي ، واقسم انه بكى عضوين من اعضاء المجمع بدموع سخينة اولهما المرحوم شكيب أرسلان والثاني المرحوم طه الراوي ، واشفق على مصير المجمع العلمي العربي بعد تساقط اعضاء من هذا الطراز . وسألني عن صحة الاستاذ محمد بهجة الاثري واثنى على علمه وكفايته .

ولما سألته عن اسباب عدم انتخاب الاديب المهجري جبران خليل جبران عضوا مراسلا للمجمع بعد انتخاب امين الريحاني الاديب المهجري المعروف اجابني بما فحواه: ان المتاعب التي صادفها المجمع من انتخاب اعضاء غير متضلعين باللغة العربية وآدابها قد فاقت المنافع التي جناها المجمع من ضمهم الى صفوفه ...

ثم أبدى اعجابه بالاساليب الادبية العربية المعاصرة الاصيلة كأسلوب طه حسين والعقاد والمازني . وكانت على منضدته احدى الجرائد الدمشقية الصادرة في ذلك اليوم واظنها جريدة « الزمان » ، وقد نشرت له مقالا عن بعض ادباء الكنانة كطه والعقاد والمازني وغيرهم ، فأخذ يتلو على مسمعي مقاله هذا ، فأشفقت على عينيه المكدودتين من اجهادهما في القراءة ورجوته ان يسمح لي بأن أتلو المقال بدلا عنه ، فتلطف بالاذن ... فشرعت بتلاوة المقال ..

وكان رحمه الله ــ يطرب لبعض نوادره الواردة في المقال فيقاطعني ضاحكا متسائلا : « لطيفة ها ؟؟ »

فأضحك مستحسنا ، ويكرر هذا السؤال كلما وصلنا الى نادرة من نوادره او دعابة من دعاباته ...

وبعد ان زودني ــ رحمه الله ــ بنسخة من العدد الذي طلبته منه من مجلة المجمع اثنى على الوضع القائم في سورية آنذاك واخذ يقارن حسناته بسيئات ما قبله ..

وقد وجه الي نصيحة بسيطة وطريفة بأن طلب مني الابتعاد التام عن كل ما لا يعنيني بصورة مباشرة وقال لي : اذا رأيت متشاجرين على هذا الرصيف من الشارع

١ ــ في السابع من آب ١٩٧٣ سألت ابنة أخ المرحوم محمد كرد علي الموظفة في المكتبة الظاهرية عن مصير مكتبة عمها فأخبرتني بانها قد بيعت وان منزله في الروضة قد بيع ايضا ..

فعليك بالرصيف الثاني فورا . وقد شرح لي فائدة مثل هذا الابتعاد شرحا طويلا وساق الامثلة من حياته الخاصة ..

وبعد برهة من الزمن ودعت الاستاذ الرئيس بعد ان اشعرني بأنه رجل عظيم حقا بعلمه الغزير وخلقه الكريم . رحمه الله .

مع كرم ملحم كرم

في تموز سنة ١٩٤٩ اعتزمت ان اصدر مجلة ادبية في بغداد باسم « الراوي (٢) » فكتبت الى بعض الادباء المشهورين في العالم العربي راجيا منهم المساهمة فيها ، فكان الاديب اللبناني الكبير المرحوم كرم ملحم كرم اول الملبين وآخرهم !

فقد أرسل الي الرجل مقالا (٣) قيما عن النبي محمد صلى الله عليه وسلم مع رسالة رقيقة موجزة هذا نصها :

« حضرة الاستاذ الكريم

تحيات عطرة . أشكر لك حسن ظنك بي وارجو لك التوفيق في سعيك . واطلب اليك أن تقبل هذه القطعة من بياني وهي جهد المقل ، داعيا لك بادراك الصبوة وبالعمر الرغد ، ولها بالسلامة من الاخطاء المطبعية .

ان للعراق فينا لهبة من حنين .

بيروت ٣ حزيران ١٩٤٩ كرم ملحم كرم »

وفي يوم من ايام تموز ١٩٥٤ كنت اسير مع أحد المحررين في مجلة « أسرار العالم » اللبنانية في شارع من شوارع بيروت فأشار صاحبي الى الجهة اليسرى من الشارع وقال :

— هذه هي ادارة مجلة الاستاذ كرم ملحم كرم : « ألف ليلة وليلة » وهو موجود فيها الآن ، فهل ترغب في زيارته ؟

فأبديت رغبتي بزيارة الاستاذ ودخلنا الادارة فقدمني صاحبي لصاحب « ألف ليلة وليلة » فرحب الرجل بي ترحيبا حارا صادقا ...

ان ابرز ما في وجه كرم ملحم كرم الجبهة العريضة الناتئة والعينان الواسعتان المشعتان من وراء نظارته السميكة ، وما عدا ذلك لا يلفت النظر . فالانف القصير الكبير المنتصب لا يوحي بشيء ، وكذلك الفم الاهرت الذي تلوح في مقدمته اسنان الاستاذ المتهدمة ...

وكان — رحمه الله — بسيطا في ملبسه حتى ان مظهره يوحي لمن لا يعرفه بأنه لا يعدو ان يكون عاملا او رئيس عمال في مطبعة مجلته ...

وكان منظره البسيط منسجما مع مظهر غرفته القديمة المتواضعة التي تحتضن مئات الكتب والمجلات المكدسة هنا وهناك وهنالك من غير تنظيم او تنسيق ...

ولم أكن أعرف بأن اديبنا الكبير كان ضعيف السمع الا بعد ان وضع كفه على اذنه اليمنى وقال لي :

— قرب كرسيك رجاء

فكنت مضطرا لان ارفع صوتي بشكل مزعج للغاية لاسمع الاستاذ كرم الذي كاد أن يبتلى بآفة الصمم ..

جددت للاستاذ الشكر على مقاله القيم عن نبينا العربي الآنف الذكر ، ودار بيني وبينه ما يدور عادة بين شخصين يلتقيان لاول مرة ، ولعلي بددت هدوء هذا الجو المألوف عندما سألته :

— لماذا لا تعالج في كتاباتك وقصصك ، يا استاذ ، المشاكل الاجتماعية والسياسية في وطنك اللبناني الاصغر ووطنك العربي الاكبر ؟ ولماذا اسرفت في التحدث عن الحب ؟ اتعتقد ان الحب هو المشكلة الوحيدة في العالم العربي ؟

هجم الدم على وجه الاستاذ وفكر قليلا ثم ابتسم وقال :

— ان الحب هو اساس كل المشكلات والحياة — كما لا يخفى عليك — الحب والحب الحياة ... وهو من بعد القلب النابض في كل فرع من فروع الادب لا سيما في القصة . ألم يدخل الحب في قصة « الام » لمكسيم غوركي بالرغم من انها قصة اجتماعية سياسية ؟ — ان الحياة يا عزيزي صحراء قاحلة من غير حب ...

— صحيح . ولكن هل تعتقد بأن الحب هو المشكلة الوحيدة في العالم وفي عالمنا العربي بالذات ؟!

— الحب كالهواء يستنشقه الكل ، وكالماء يشربه الكل ، وكل قصة تخلو من هذا العنصر الحياتي فهي قصة فاشلة او ناقصة على اقل تقدير ...

وغلبني حماس الشباب فعاتبته قائلا :

— لا تدع الجماهير تعرض عن ادبك ، فقلمك جبار ، ومن ذا الذي ينكر لغتك الساطعة وبلاغتك الرائعة ، فلماذا تقدم لنا نوعا واحدا من الزاد الفكري لا يغذي الا الاقلية المترفة ؟!

لم يغضب صاحب « الف ليلة وليلة » من هذه الصراحة الموجعة ، وانما ابتسم ابتسامة من شعر بشيء من التقصير وقال :

— اذا دخلت السياسة في الادب افسدته .

— لن يستطيع الاديب ، بعد الآن ، ان يفصل السياسة عن الادب فصلا تاما فيتنصل من المسؤولية التي يلقيها مجتمعنا المتأخر على عاتقه ...

— سيصدر لي ، قريبا ، كتاب عنوانه « المساكين » تحدثت فيه عن الطبقة المهملة البائسة في مجتمعنا ..

— هذه بادرة حسنة منك ، ستقابلها الجماهير بالاعجاب والتقدير ..

وكأني أطربته بهذا القول فابتسم ابتسامة عريضة

---

٢ — حالت الظروف ، آنذاك ، دون اصدارها .

٣ — نشرته مجلة « الاقلام » البغدادية ج ١٢ ، آب ١٩٦٦ .

يا قدس

بزغ الفجر فأهلا بالحياة
بالبطـولات تهز الارض
اهـلا بالفـداء
بالمنـادي
« لن ينام الثأر في جفن الاباة »
من ذرى الجـولان
من مصر الحبيبه
من بلاد العرب في كل مكان
هتف الابطال ها نحن هنا
هذه وحدتنا الكبرى تجلت
لفظنـا الهدار يا عدتنـا
دمنا يرخص للارض السليبه
اننا آتون يا القدس الحبيبه
فارقبينـا
واسمعي خطواتنا
والزئـير
اننا آتـون يا مسجدنا الاقصى
ويا أقدس ترب
اننا آتـون يا الارض السليبه
طلقة المدفع يا فرحتنا
انت يا انشودة المجد لنـا
يا انتصارات الجدود
عادت الايام هيا زغردي
يـا نسـاء
نحن احفاد الاباة المنشدين
لن ينام الثأر في اجفاننا

الرابية ـ لبنان — اسمى طوبي

مشرقة وتوهج وجهه بالغبطة والحبور ... وانتقلنا الى حديث آخر تناولنا فيه خصومته (٤) مع صديقه الياس أبي شبكة ـ رحمه الله ـ حيث سألته عن الاسباب والبواعث الحقيقية لهجومه الكاسح القاسي على صديقه الشاعر فاتضح لي من فحوى جوابه ان الاسباب في جوهرها شخصية ولا علاقة لها ببواعث النقد العلمي الموضوعي المتجرد . ومما قاله لي بهذا الشأن :

ـ لم أتستر في كتابة المقالين المذكورين وراء توقيع مستعار وانما ذكرت فيهما اسمي الصريح ولا استطيع الآن أن أتنكر لما جاء فيهما بالرغم من زوال الاسباب الداعية الى كتابتهما . وعلى أي حال فقد كان ابو شبكة ـ رحمه الله ـ عنيفا في سلوكه معي . وعندما كنا نشتغل في جريدة واحدة كان يدخل ، أحيانا ، الى الغرفة مصعر الخد ، متشنج الاعصاب ، ثم يغلق الباب بعنف من غير ان يتلطف بالتحية فألمم اعصابي منه ...

وعندما يشاهدني ، في الشارع ، في حالة غضبه ، يترك الرصيف الذي اسير عليه وينتقل بسرعة الى الرصيف الآخر ...

ولما ذهب الى رحمة ربه رثيته وكنت صادقا في رثائي (٥) ...

ولا اذكر ، بعد ذلك ما دار بيني وبين كرم ملحم كرم من احاديث ، ولكني اذكر اني ودعته بعد أن اشعرني بعظمة الاديب البسيط المتواضع الذي لا تنقطع صلة لسانه بقلبه الكبير . رحمه الله .

---

٤ ـ نشر الاستاذ كرم ملحم كرم في العدد ٢٨ من مجلة « الامالي » البيروتية الصادر في ١٠ اذار ١٩٣٩ مقالا هاجم فيه أبا شبكة هجوما عنيفا تحت عنوان « شعر لا يشرف الادب العربي ـ شعراء القرن التاسع عشر في فرنسا يحتلون (أفاعي الفردوس) » . ومما قاله فيه : « .. ولست أدري بعد كل ما اوضحت اي قيمة لشاعريته . ألا يكون شعر هذا الناسخ الماسخ لطخة في جبين الادب ؟ يا لفضيحتنا عند ادباء الفرنجة خصوصا وفي الجراب سرقات اخرى سنميط عنها في الاسبوع القادم اللثام ، ومن صبر ظفر » . وقد استشهد الاستاذ كرم بأبيات باللغة الفرنسية للشاعر الفرد دي فيني وكتب تحتها ابيات ابي شبكة المشابهة او المطابقة لها ...

ونشر في العدد ٣١ من الامالي مقالا اخر عنوانه « أبو شبكة في هذيانه اشبه بالطير المذبوح . القحة لا تدفع « الفازي » الى السرقة فحسب بل الى الكذب ايضا ! » . ومما قاله فيه : « .. وسرقاته بعدد شعر رأسه . ولو كان يملك في ادبه بعض الكرامة لاعتزل الناس واسرع الى صخرة الانتحار في رأس بيروت للنجاة من الخزي اللاحق به .. » .

٥ ـ ان رثاء كرم ملحم كرم لصديقه ابي شبكة المنشور في كتاب « الياس أبو شبكة ـ دراسات وذكريات » ص ٥١ ـ ٥٦ يناقض تحامله عليه في مجلة « الامالي » ويعد خير كفارة عن ذلك التحامل القاسي . وحسبي ان اذكر قوله مخاطبا أبا شبكة : « اني لاتعجب من النقيضين فيك . أيموت من يطعم الخلود زاد البقاء ؟ أيذهب الموت بمن خلع على الدهر كساء لا يبلى ، والقى في فم الاجيال اناشيد تجاوز روعة انغامها الاحقاب .. » .

وقوله عن « افاعي الفردوس » : « طاب مثواك بطيب أعرافك . فالوهج الكامن في « افاعيك » لم يتحسس به أدب العرب قبل ان تخلعه عليه . وقلدك الكثيرون فتخاذلوا عنك . واسعفك بؤسك في اطلاق الظلامات فماجت أبياتك بنزوات كبدك المقروحة ، المغموسة في الانين .. » .

بغداد — حارث طه الراوي



محمد سليم رشدان

في مسالك الدروب

بقلم محمد سليم رشدان

***

حق الآخرين ..

فيما يحدثنا به التاريخ ان عمر الفاروق ، وحياته حافلة بالمواقف الرائعة ، فوجيء يوما بالرجل الذي قتل اخاه في الجاهلية قبل الاسلام – والاسلام يجب ما قبله كما نعلم – اذ دخل عليه وهو امير المؤمنين في امر من الامور ، فلم يتمالك عمر نفسه من ان يقول له :

– يا هذا .. والله اني لاكرهك !

ودهش الرجل لما يسمعه من خليفة رسول الله ، وهو مرجعه ومرجع الناس جميعا ، اذ بيده مقاليد الامور ، وبوسعه ان يعطي ويمنع ، وان يضر وينفع . فقال متسائلا :

– وهل انت لذلك مانعي حقا وجب لي يا امير المؤمنين ؟!

وعندها تنبه عمر رضوان الله عليه لخطورة ما قاله للرجل وهو في موقفه ذاك ، وكأني به قد استشعر الندم لما بدر منه حين قال يرد عليه :

– معاذ الله ان افعل ، فامنعك حقا وجب لك !

وحين سمع الرجل ذلك من عمر احس بالطمأنينة ، وعندها لم يبال بما واجهه به الخليفة ، فاذا هو يقول حين سري عنه :

– لا عليك اذن يا أمير المؤمنين ، فانما تبكي على الحب النساء !

ذلك ما يحدثنا به التاريخ ، وهو يسرد هذا الموقف الرائع ، فيسجل به صفحة مشرقة في حياة الرجل العظيم عمر بن الخطاب الذي لم يتخرج من جامعة ، ولم يحصل على اية شهادة علمية ، ولكنه نشأ في مجتمع علمه ان لا يقبل الحيف للآخرين ولا يسكت عليه ، وان لا يرضى به لنفسه حين ينزل بساحته ، كما علمه ان تحمل المسؤولية امانة ومن اجل ذلك كانوا يؤدون هذه الامانة على افضل وجوهها .

ليتنا نتعلم من عمر ..

وعندها سوف نعرف في ضوء هذا الذي نتعلمه ان الحب والكراهية لا يصح ان يكونا في اي حال من الاحوال السبيل الذي نسلكه في تصريف الامور ، او ان يكونا وحدهما هما الميزان الذي نزن به حقوق الآخرين حين يوكل الينا ان نرفع او نخفض ، وان نعطي او نمنع ، وان نقدم او نؤخر .

ليتنا نتعلم من عمر ..

وذلك لكي نعلم علم اليقين ان صاحب الحق لا يحرمه من حقه الا سبب واضح بين ، لا يكون ابدا من بيده ذلك الحق طرفا فيه ، فاذا به يقحم نفسه بسبب ذلك ليحول بين صاحب الحق وبين ان يناله ، وفي ذلك من التجني ما لا يرضى به خلق كريم .

رحم الله ابا حفص ، فقد كان قدوة حسنة لم اراد ان يقتدي به ، وكان عظيما بكل ما في الكلمة من معنى ، وما اندر ان يبلغ الآخرون مداه .. !!

حديث .. ولكن بغير لسان

طفلنا الصغير .. كان بين النوم واليقظة ، وكان يحتضن بيديه الاثنتين ثلاثة أسفاط من الخشب ، وذلك حين كنا نطل على الحدود عند مدينة « الرمثا » الاردنية . والوقت يقارب العاشرة من الليل آنذاك .

وماذا كان في الاسفاط الثلاثة ؟!

انها كنزه الثمين ، وثروته التي يباهي بها « اوناسيس » صاحب الملايين الكثيرة لو كان يسمع به او كان يعرف شيئا من خبره ، وانها آية افتخار واعتزاز لديه ، سوف يفاخر بها ابناء الجيران جميعا ، ويعتز ويغالي بالاعتزاز ، لانه استطاع ان يحوز تلك الثروة الهائلة من دونهم ، واستطاع ان يكون المالك لها فيما بينهم ، ومن اين لهم ان يحوزوا شبيها لها ، وهم لم يذهبوا كما ذهب الى لبنان ، ليتمكنوا من شراء ما يماثلها ويحاكيها ؟!

انها اسفاط من الخشب كما قلت ، مغلفة بالاوراق الملونة ، وقد زينتها صور جميلة مفرحة ، لمخلوقات غريبة ، وطيور واسماك وازهار ، واحتوى كل سفط منها

على قطع كثيرة صغيرة ، تختلف ما بين الخشب والمعدن ، ولكل قطعة منها لونها وشكلها ، وكل مجموعة منها تؤلف مشهدا بعينه ، او آلة بعينها ، او حيوانا .. او طائرا .. او ما الى ذلك ، وكلها مما يبعث البهجة في نفسه ، ويملأ قلبه الصغير بالفرح الغامر .

وتوقفت السيارة حيث اشير اليها ان تتوقف ، وانزلت منها حقائب الاسرة جميعا ، ثم افرغ ما فيها دونما استثناء ، ونثر كل شيء من محتوياتها الى جانب ما نثر هناك للآخرين ، الذين جاءت بهم المصادفة في تلك الساعة.

واخيرا جاء دور افراد الاسرة ، فانزلوا من السيارة الى حيث يفتشون ، وايقظت الحركة المفاجئة طفلنا الصغير، ثم علم ان عليه ان ينزل مسرعا من السيارة ، لتؤخذ الى حيث تفتش هي الاخرى .

وهنا كان الموقف العصيب ..

لقد احتضن اسفاطه الثلاثة ، وهي ثروته الغالية التي لا يماثلها شيء في الوجود لديه ، واستجاب للامر كما استجاب الآخرون ، ونزل معهم وقد ضم تلك الاسفاط الى صدره ، بكل ما يملك من حرص وعناية ورعاية دونها حرص ذلك البخيل المتزمت في بخله ، وهو يحتضن الى صدره ما جمعه بالحرص والتقتير والحرمان ، بل دونها ذلك الذي يضم الى صدره حبيبا يئس من لقائه ، فهو يحتضنه بكل ما يملك من شوق .. ولهفة .. وتحرق حين ظفر به .. !!

ووقعت الاعين على تلك الاسفاط ..

واذا هي تتجه اليها جميعا ، وقد ارتسم على وجوه اصحابها تساؤل .. ريبة .. وحذر .. وعدم اطمئنان .

وابتدر صغيري اقرب من كان هناك منهم ، وامسكه من كتفه يهزه ، وهو يسائله منفعلا :

ــ ماذا تحمل ايها الصغير ؟! هات .. ارني !!

وبغت الطفل لذلك ، وازداد تشبثه بأسفاطه الثلاثة، وفزع لذلك التساؤل ايما فزع ، فانخرط في البكاء وهو يصرخ بأعلى صوته :

ــ اترك اسفاطي .. لا تمسك كتفي هكذا .. بابا .. ماما .. انه يأخذ اسفاطي .. لا .. لا .. لا اعطيك اسفاطي .. انها لي .. انها لي ..

وعندها ازداد غيظ الرجل ..

فانتزعها منه عنوة ، ومزق ما عليها من اغلفة ، واقبل يعالج فتحها دون ان يبحث عن مكان اقفالها ، فتحطمت اغطيتها الهشة ، وتناثر من يديه كل ما فيها من قطع خشبية ومعدنية ، وتبددت تحت اقدام الواقفين هناك ، وما كان اكثرهم من حوله ، واختلطت بالتراب والحصى !!

وذهل الصغير مما يرى ..

والقى نفسه الى الارض يتمرغ بترابها ، ويتمزق غيظا والما وحسرة ، وكأنما وقعت السماء على راسه ، وأصيب بما ليس بعده مصاب . واقبل يجمع مزق الاوراق الملونة ، التي كانت تغلف كنزه المفقود ، فيتحسسها بيديه ويبللها بدموعه ، واقبل يلتقط من هنا وهناك بعض تلك القطع الصغيرة ، التي كانت تمتلىء بها اسفاطه الثلاثة ، وقد اختلطت بالتراب والحصى ، وتحطم الكثير منها تحت الاقدام .

واشفقنا على الصغير مما هو فيه ، وانتزعناه من مكانه ذاك ونحن نعده بسواها ، ونمنيه بمثلها ، وذلك حتى لا يمضي بنا الليل عند الحدود . ثم انطلقت بنا السيارة الى عمان ، والصغير ما يبرح يتلفت الى حيث فقد كنزه ، واضاع الذخيرة التي كانت تعادل ذخائر العمر لديه !

وكان ما يبرح يسائلنا :

لماذا حطموا اسفاطي الثلاثة ؟! لماذا لم تخبريهم يا ماما انني احبها كثيرا ، وانني افرح حين العب بها ؟! لماذا لم تمنعهم يا بابا ان يفعلوا ذلك ؟! لماذا لم يتركوا لي واحدا منها اريه لابناء الجيران ؟! لماذا .. ؟! لماذا .. ؟!

كان الصغير ما يبرح يردد تساؤله ذاك دون ان يسمع منا جوابا عليه ، واخيرا اجهده البكاء .. والتساؤل .. فنام !

وتنفست امه الصعداء ..

وادنته منها ، وهي تسنده اليها ، وتغطيه بدثارها، ثم تختلس النظر اليه ، وقد ارتسم في ملامح وجهها ما ينطق بحديث طويل ، ولكن .. بغير لسان .. !!

امر .. يدعو الى التساؤل

في احاديث الغابرين .. اسطورة عن رجل زعم ان لديه قماشا مسحورا ، لا يراه الا من كان جديرا بثقة الآخرين ، فكان اذا ما دخل عليه واحد ممن وكل اليهم ان يختبروا جودة ذلك القماش لا يرى منه شيئا ، لانه في واقع الامر غير موجود ، ولكنه كان لا يعترف بذلك حتى لا يكون اعترافه حجة عليه ، ودليلا على انه غير جدير بثقة الآخرين ، ولذا كان يتظاهر بانه يبصر ذلك القماش العجيب ، فيسرف جاهدا بالثناء عليه !

تلك هي الخلاصة من الاسطورة ، ولست اتحرى فيها نهاية السرد ، فعند هذا المدى موضع العبرة فيما سوف اعرض له من القول .

واما الذي اعرض له من القول :

فانه هذا السيل الدافق من الشعر والنثر حينا ، ومن القصة والمسرحية حينا آخر ، ثم من الصورة واللوحة والمشهد .. وما الى ذلك ، مما ينعتونه بالمدرسة الحديثة ، ويطلقون عليه شتى الاسماء ، مما لا افهمه انا ، وربما لا يفهمه آخرون من مثلي ، ممن يرون في هذه المدرسة الحديثة مثل رأيي ، ولكنهم لا يعترضون التيار الجارف ، الذي يسمونه التطور والانطلاق ، وذلك لكي

اهلي

●

سريت في أودية المرتجى	حر المنى في صحبة الاحرار
أحمل هم المجد في اضلعي	وملء قيثاري غد زهار
أحنو على الناس واحلامهم	وأزرع الليلات بالاقمار
أنا أخو الشاكين ، قلبي لهم	ليلعبوا بسره الزخار
اسمع ..بصوتي عرس امجادهم	انظر.. فهم في محجري أنوار
يبرعم العمر بضحكاتهم	ان يضحكوا ، وتبسم الاقدار
أهلي ، أباة الضيم ، قد لونوا	شوق العلا وزحزحوا الاستار
أحبهم .. أهوى جراحاتهم	كم ضفرت لي من قباب الغار
يا طيب الله لهم موطنا	حرا .. ولا زالوا هم الثوار

حلب ـ دار الكتب الوطنية

علي الزيبق

لا يتهموهم بالتخلف والرجعية والجمود ، والوقوف في سبيل عجلة التقدم نحو الافضل كما يرون !!

ولقد رأيتني يوما اقرأ ديوان شعر ، وسميته هكذا لان مؤلفه كتب كلمة « شعر » في طليعة غلافه ذي الالوان، وظننتني سوف اجد فيه شعرا ، ولكني وجدت فيه كلاما غير مفهوم اطلاقا ، كما لم اجد فيه ابسط متطلبات الشعر وهي الاوزان ! فعجبت مما رأيت ، وسألت واحدا من زملاء حرفة الادب وانا اقول له :

ـ انظر .. ان هذا ديوان شعر كما يزعم كاتبه ، ولكني لا ارى فيه شعرا !!

فأسرع صاحبي يسكتني من فوره ، وقد رفع يده في وجهي معترضا ، حتى توهمته سوف يمسك بفمي لكيلا استرسل في الكلام ، وقال لي منفعلا :

ـ اياك .. اياك ان تقول هذا .. انهم يسمونه شعرا رغم ما تراه انت ويراه غيرك فيه ، وان من يعترضهم انما هو متخلف رجعي ، ولست اريد لك مثل هذه النعوت البغيضة .. فما انت وذاك يا اخي .. ؟!

وفي مرة اخرى .. كنت مع صديق يوما اشاهد مسرحية ، فرأيت في كل ما قيل فيها مثل ذلك الذي رأيته في الديوان السالف الذكر ، وقلت لصديقي اسائله :

ـ هل فهمت شيئا مما رأيته في هذه المسرحية وسمعته .. ؟!

فاذا بصديقي ذاك يجفل من سؤالي وهو يرد علي قائلا :

ـ اياك ان تقول هذا .. انهم انفقوا على اخراجها كذا دينارا ، وانهم انفقوا على التمثيل كذا دينارا ، وان الاستشارات الفنية وحدها كلفت ما هو كيت وذيت !! وذلك عدا الموسيقى .. والمشاهد .. والمؤثرات الصوتية .. والاضاءة وما يتبعها والاعلانات على انواعها وما يتصل بها .. وغير ذلك .. وغير ذلك .. فما الذي تقوله يا صاحبي .. ؟! اياك ان يسمعك احد .. !!

وحيال ذلك كله .. خيل الي انني اسمع من صاحبي في الاولى ، كما اسمع من صاحبي في الثانية ، ما تتجاوب معه الاصداء في قصة القماش المسحور !!

يقولون في المنطق الجديد :

ـ ان الحضارة العصرية تقضي ان يعيش الناس مع حرية الكلمة !

ونحن نقول معهم :

اللهم نعم .. شريطة ان نقف عند حدود الحرية فقط !!

واما ان يترك دعاة هذا التجديد وبأيديهم الوسيلة ، ليفرضوه على الناس بما يشبه الالزام ، فرضا ملحا متواصلا ، فانها مسألة تدعو الى التساؤل ، كما تدعو الى ان يعاد فيها النظر .. !!

ونرجو ان يعاد فيها النظر في كل قطر عربي .. فهي بلاء شامل .. !!

نرجو ذلك .. وسوف نظل نرجوه .. بتفاؤل وامل .. !!

عمان ـ الاردن

محمد سليم رشدان

طه حسين

نظرات في حياته وأدبه

بقلم حسين علي محمد

* * *

رحلة حياة

ولد طه حسين في عزبة الكيلو (بالقرب من مركز مغاغة محافظة المنيا بصعيد مصر) في ١٤ نوفمبر ١٨٨٩ . ولقد فقد بصره وهو في سني حياته الاولى . ولقد حفظ القرآن الكريم في كتاب القرية ، ثم انتقل الى القاهرة ليدرس في الازهر سنة ١٩٠٢ مع اخيه المرحوم الشيخ أحمد حسين . وحين انشئت الجامعة الاهلية في العام ١٩٠٨ اخذ يتردد عليها ، ثم تفرغ لها حين اسقط في العالمية سنة ١٩١٢ . واخذ الدكتوراه من الجامعة الاهلية سنة ١٩١٤ عن بحثه « ذكرى ابي العلاء » . ثم اوفد في بعثة في نفس العام الى فرنسا فدرس نحو عام في مونبليه ، ثم عاد الى مصر لعجز ميزانية الجامعة سنة ١٩١٥ ، ثم سافر اواخر هذا العام الى باريس بعد اصلاح شؤون الجامعة وظل بها حتى سنة ١٩١٩ . وكان في خلال هذه الفترة قد حصل على الدكتوراه (في العام ١٩١٨) على اطروحته « فلسفة ابن خلدون » . ثم دبلوم الدراسات العليا في التاريخ القديم سنة ١٩١٩ . ثم عاد الى مصر فعمل مدرسا للتاريخ القديم (سنة ١٩١٩) بالجامعة ، ثم استاذا للادب العربي حين ضمت الجامعة الى الحكومة (سنة ١٩٢٥) ثم انتخب عميدا لكلية الآداب سنة ١٩٣٠، ثم اخرج من الجامعة في عهد صدقي سنة ١٩٣٢ ، ثم اعيد الى الجامعة سنة ١٩٣٦ ، ثم انتخب عميدا سنة ١٩٣٨ ، ثم عين مستشارا فنيا لوزارة المعارف ، ثم مديرا لجامعة الاسكندرية في وزارة الوفد سنة ١٩٤٢ ، ثم احيل الى التقاعد سنة ١٩٤٤ ، ثم عاد وزيرا للمعارف في وزارة الوفد سنة ١٩٥٠ ، ونال جائزة الدولة التقديرية سنة ١٩٦١ (١) . ولقد توفي في اكتوبر ١٩٧٣ في نفس اليوم الذي اعلنت فيه الصحف المصرية انه فاز بجائزة الامم المتحدة لحقوق الانسان مع يوثانت واربعة آخرين (٢) .

مؤلفاته

كتب الدكتور طه حسين اكثر من اربعين كتابا في الادب والتاريخ والدين والتربية . ومن كتبه « الايام » التي صدر الجزء الثالث منها مؤخرا ، وطبع الجزء الاول والثاني اكثر من ثلاثين طبعة ، وقصص « المعذبون في الارض » و « احلام شهرزاد » و « دعاء الكروان » وله في الدراسات الدينية « على هامش السيرة » و « الشيخان » و « الوعد الحق » و « علي وبنوه » و « مرآة الاسلام » وهذه الكتب السابقة يمتزج فيها التاريخ للاسلام بالدراسة التحليلية . وله في التربية « مستقبل الثقافة في مصر » . وله في الدراسات الادبية « حديث الاربعاء » و « من حديث الشعر والنثر » و « في الادب الجاهلي » و « مع المتنبي » ... وغيرها .

ولقد صدرت عنه عدة مؤلفات منها : « طه حسين الكاتب والشاعر » لمحمد السيد كيلاني ، و « مع طه حسين » للفقيد السوري الراحل سامي الكيالي . كما اصدرت مجلة « الهلال » المصرية عنه عددا خاصا في اول فبراير سنة ١٩٦٦ . كما خصص له الاستاذ صلاح عبد الصبور فصلا في كتابه « ماذا يبقى منهم للتاريخ ؟ » وصدر عنه مؤخرا كتاب في العراق بعنوان « طه حسين بين انصاره وخصومه » وكتبت عنه مقالات متفرقة ، ودراسات في ثنايا كتب ودراسات ادبية باقلام الدكاترة : شوقي ضيف ، احمد هيكل ، عبد المحسن طه بدر ، علي الراعي ... وغيرهم .

معارك أدبية

اتصل طه حسين من بداية شبابه بالصحافة ، وحينما ظهرت « السياسة » في ٣٠ اكتوبر ١٩٢٢ ، و « السياسة الاسبوعية » في ١٣ مارس ١٩٢٦ كملحق لها يهتم بالدراسات الادبية . كان الدكتور طه حسين من كتابهما البارزين . فلقد كان احد فرسان ثلاثة هم فرسان الكلمة في حزب الاحرار هم الدكاترة : محمد حسين هيكل ، وطه حسين ، ومحمود عزمي .

ولقد ظل طه حسين مواليا للاحرار حتى سنة ١٩٣٢ حين اخرجه صدقي من الجامعة ، وكان الوفديون والاحرار متضامنين لمحاربة صدقي . فأخذ طه حسين يكتب في صحف الوفد ، واخذ يتقرب من الوفد حتى صار وزيرا في وزارة الوفد بعد ذلك ـ في العام ١٩٥٠ .

ولقد خاض الدكتور طه حسين في بداية حياته معارك ادبية نقدية لعل اشهرها هذه المعركة الادبية التي دارت حول كتاب « تاريخ آداب اللغة العربية » لجورجي زيدان . وقد ظل الحوار بينه وبين جورجي زيدان مشتعلا فترة طويلة (٣) .

في الشعر الجاهلي

اما كتاب « في الشعر الجاهلي » الذي صدر للدكتور طه حسين عام ١٩٢٦ فلقد أثار زوبعة من النقد حوله ، لم يثرها كتاب آخر ، باستثناء كتاب « الاسلام واصول الحكم » للشيخ علي عبد الرازق .

وكتاب « في الشعر الجاهلي » يقدم نظرة جديدة في الشعر الجاهلي يرى صاحبها ان الشعر الجاهلي لا يمثل

الحياة العربية في العصر الجاهلي ويؤكد ان هذا الشعر موضوع في العصر الإسلامي .

ويقول الدكتور احمد هيكل في كتابه « تطور الادب الحديث في مصر » : « اذا تأملنا تلك النظرة التي نظر بها الدكتور طه حسين الى التاريخ العربي اولا ، والى الشعر الجاهلي ثانيا ، وجدنا ان وراءها شعور باستقلال الشخصية المصرية ، يحمل على عدم الارتباط بالتاريخ وبالتراث العربيين ، ارتباطا يحمل على اجلالهما او التسليم بما اشتملا عليه او استقر حولهما من قضايا . وليس يخفى ما وراء نظرة الدكتور طه حسين كذلك من احساس قوي بالحرية الفردية ، وتشبع هائل بالروح الثورية ، مما جعله يخرج على الناس بهذه الآراء التي زلزلت افكارهم واثارت مشاعرهم ، وجرت عليه كثيرا من الخصومات والخصوم ، حتى تجاوز الامر الوسط العلمي والادبي ، وعرضت القضية في البرلمان ، واوشكت ان تطوح بالمؤلف خارج الجامعة ، لولا ان هدد رئيس الوزارة حينذاك بالاستقالة ، فسكنت العاصفة الى حين ، واكتفي بمصادرة الكتاب الذي ادخل عليه صاحبه بعض التعديلات التي لم تمس فكرته الاساسية ، ونشره بعد ذلك باسم « في الادب الجاهلي » (٤) » .

ويقول الدكتور احمد هيكل : « ان الخلافات الحزبية كانت من محركات هذه الزوبعة ، فقد كانت الاغلبية البرلمانية وفدية حينذاك ، وكان رئيس مجلس النواب هو سعد . ولذا انتقلت القضية الى مجلس النواب لينال من طه حسين الموالي للاحرار الدستوريين . ولكن رئيس الوزراء حينذاك كان عبد الخالق ثروت ، وكانت عواطفه مع الاحرار الدستوريين . وكان طه حسين قد جعل اهداء كتابه اليه ، ومن هنا دافع عنه رئيس الوزراء على حين هاجمه رئيس مجلس النواب . ونظرا لتهديد رئيس الوزراء بالاستقالة قد انتقلت القصة من مجلس النواب الى النيابة التي صادرت الكتاب (٥) » .

الايام

ظهر كتاب « في الشعر الجاهلي » سنة ١٩٢٦ وكان « يمثل اول صدام حقيقي للمؤلف ببيئته ، واول تمرد من جانبه على موروثاتها ... وكان طبيعيا ان تواجه البيئة كتابه بصلابة شديدة جعلته يحس بأن جهل بيئته الذي كان سببا في حرمانه في طفولته يوشك من جديد ان يكون سببا في حرمانه في شبابه وفي رجولته ، وليس غريبا بعد ذلك ان نعتبر كتاب « الايام » رد فعل من جانب

الى فاتنتي

ما للوجود يضيق في بصري
ما للحياة كئيبة الصور
وحدي أنا في غربتي قلق
مضنى حليف اليأس والكدر
الليل يطويني ليسلمني
لكآبتي ومرارة السهر
أين التي بالامس مانحتي
دفء الحنين ولذة السمر
مر الشتاء بروضتي فطوى
منها أزاهير الهوى النضر
وحدي هنا أجتر طيف هوى
حلو العهود معطر السير
فأروح والاشواق تصهرني
بلهيبها المتوهج الاشر
أبكي، وهل يجدي البكاء وهل
يحيي البكا آمال محتضر
شقراء ، يا تهويمة السحر
يا نشوة الانغام في الوتر
أهواك لحنا حالما نزقا
حلو الرنين مسربلا عمري
وكفى فؤادي منك ملهمتي
بعض الوصال ومتعة النظر

بغداد عبدالخالق فريد

المؤلف على الثورة والضجة التي احاطت بكتابه « الشعر الجاهلي » وقد ظهر كتاب « الشعر الجاهلي » سنة ١٩٢٦ وظهر كتاب « الايام » سنة ١٩٢٩ وكان ينشر قبل ظهوره مسلسلا في مجلة « الهلال » (٦) » .

دعوة لدراسة آثار طه حسين

ان ما نشر من كتب طه حسين يمثل بعض ما كتب في النقد والادب والدين والحياة ، ونرجو ان تنشر الهيئة المصرية العامة للكتاب او دار المعارف الاعمال الكاملة لعميد الادب العربي الراحل فهناك آلاف المقالات التي نشرت متفرقة ولم تجمع في كتب مغلقة . كما ان هناك بعض القصائد التي نشرها في بداية حياته والتي تظهره لنا شاعرا جيدا . وبعد جمع آثاره نرجو ان يأخذ حقه من الدراسة المتأنية .

الزقازيق ـ مصر حسين علي محمد

(١) انظر (تطور الادب الحديث في مصر) للدكتور احمد هيكل ص ٢٤٣ .
(٢) جريدة الاهرام العدد ٣١٧٣٣ الصادر في ٢٨ ـ ١٠ ـ ١٩٧٣ .
(٣) انظر مجلة « الادب » المصرية ـ عدد خاص عن « طه حسين ».
(٤) تطور الادب الحديث ـ ص ٢٥٩ ـ ٢٦٠ .
(٥) المرجع السابق ص ٢٦٠ .
(٦) تطور الرواية العربية في مصر للدكتور عبد المحسن بدر ص٣٠٢

قصة

كانت فعلا تفاحة

بقلم جمعة محمد جمعة

كانت صفية جالسة امام بضاعتها.. **لا تدري سببا واحدا لسيطرة الذكريات الحلوة على مخيلتها ..** وسط الحارة يلعب اطفالها ، وطفل **رضيع يرقد في حجرها ترضعه ..** النوم يداعب اجفانها .. اسندت **رأسها** على راحة يدها مرتكزة بكوعها فوق فخذها الايمن وراحت في شبه اغفاءة ..

هزها احمد أكبر ابنائها الذكور وهو في حوالي العاشرة من عمره صائحا في سرور:

ـ امي.. أمي..وجدت تفاحة..

بحلقت الام في يده ، وانتفضت مذعورة :

ـ ولد .. ارم .. ارم يا ولد

ـ تفاحة يا امي ..

نادت صفية ابنتها رضا وهي كبرى بناتها والبالغة من العمر أربعة عشر عاما تقريبا ، وقد نضج في جسدها الشباب ، وارتسمت على محياها علامات المراهقة ، وبرز صدرها .. تفحصتها الام لحظة وغمغمت لنفسها :

« والله والبنت كبرت..وصارت عروس .. »

ثم ارتفع صوتها آمرة اياها :

ـ خذيها منه والقي بها بعيدا.. أين وجدها ؟

صاح أحمد وهو يجري بعيدا عن اخته فرحا بالتفاحة في قبضة يده :

ـ وجدتها تحت السرير ..

تذكرت صفية .. كانت فعلا **تفاحة .. تدحرجت تحت السرير منذ أمد بعيد** ، وكانت في ليلة اسدل بعدها الستار عن الحياة الرغدة الهنية .. تدحرجت التفاحة ولم تفكر ليلتها في البحث عنها، وارجأت البحث الى الصباح .. ثم نسيت الامر تماما .. فقد تعاقبت الايام سراعا .. وتحولت التفاحة الى جمجمة انسان مهشمة .. لونها الاحمر مختلط بالنقط السوداء .. وبها ثقوب كثيرة .. وبقع العفن قد تجمدت فوقها .. عادت رضا قائلة :

ـ انه يبكي ولا يريد اعطاءها لي ..

ـ طيب ..خذي اخواتك وتناولوا الافطار ..

اخذت صفية تهش الذباب عن وجه طفلها الرضيع النائم .. والنوم يلقى بكل ثقله على جفنيها .. ألقت ببعض الماء من كوب الى جوارها فوق وجهها ، ولكن دون جدوى ..راحت ثانية في طيات النعاس ..

رفعت صفية رأسها على صوت امراة من الجيران واقفة امامها :

ـ نعم نعم ..

ـ كيلوا بطاطس يا أم احمد ..

وضعت صفية بعض حبات البطاطس في كفة الميزان .. وفي الاخرى سنجة زنة كيلو من الحديد

.. **ثم افرغت ما في كفة الميزان** من بطاطس في جلباب ام سعد التي انصرفت بعد أن نقدتها ثمنها ..

عادت صفية تقاوم النوم اللحوح عن جفنيها .. وقد بدا الارهاق فوقهما ثقيلا .. **اخذها الكرى هذه المرة الى الماضي البعيد ..** كانت ملقية بجسدها فوق الفراش خفيفة كالفراشة .. سعيدة مرحة .. تنتظر عودة حبيبها ، وهي ترضع حكمت آنذاك .. وكانت رضا نائمة ، وفوق شفتيها رقدت ابتسامة بريئة .. كانت الصغيرة تنتظر في حلمها عودة فارسها هي الاخرى محملا بالفاكهة ..

رفعت رضا رأسها وتمتمت وهي تفرك عينيها :

ـ **اين ابي ؟**

ردت صفية في اقتضاب :

ـ **لم يعد .. تأخر الليلة كثيرا..**

عادت رضا الى نومها، وبقيت صفية على حالها .. تنتظر وتنتظر .. رفعت ذراعيها من تحت رأس حكمت ، اعتدلت جالسة في فراشها .. تنصتت الى دبيب الاقدام فوق أرض الحارة ، والتي سرعان ما تتلاشى وتبتعد ، ويتلاشى الامل في ان تسمع دقات زوجها المعتادة على الباب .. كل حواسها متلهفة تنصت الى السكون ، وتحاول ان تجعله ينطق بما تريد .. يطمئنها على زوجها وحبيبها .. قلبها يدق في عنف جعل قميصها الخفيف يرتعش ارتعاشة خفيفة تشبه ارتعاش الاجفان ..

انتصف الليل او كاد .. تململت حكمت في رقدتها ، وارتفع صوت بكائها .. مالت صفية عليها، واخذت تربت فوق صدرها ربتات خفيفة.. لكن الصغيرة لم تسكت ، واخذت ترفس الهواء بقدميها الصغيرتين.. أخرجت الام ثديها مرة ثانية واحكمت وضعه في فم الصغيرة الجائعة .. فعاودها الاطمئنان ، واخذت تضغط عليه باسنانها اللبنية الحنون ..

غفت صفية وهي مرتكزة بكوعها على الوسادة ثم انتفضت مذعورة.. فقد جثم فوق صدرها كابوس مقيت .. فقد تراءى لها علام مصابا في حادث .. بسملت ونفخت في صدرها متمتمة :

ـ اعوذ بالله من الشيطان الرجيم .. يا رب سلم ..

تلفتت حولها ، وشملت الحجرة كلها بنظرة واحدة .. كانت تبدو أمامها خاوية .. ثم قامت ..وكانت طرقات علام الخفيفة المتوالية على الباب ..

تدلت من فوق السرير .. **لملمت** قميص نومها ، ولملمت شعرها بغطاء

للرأس ثم فتحت الباب .. دخل علام .. حياها تحية مقتضبة .. عادت وراءه قائلة في رنة عتاب :

ــ ماذا اخرك ؟.. كنت قلقة عليك ..

نظر اليها علام ولم يجب .. انصرفت الى اعداد الطعام .. التفتت اليه وهي تغرف الطعام في الاطباق .. سقطت عيناها على وجهه الجامد الحزين .. ورأت علامات الحزن متمثلة في دمعتين عالقتين تتهاديان في بطء .. سألته وقد توجست خيفة :

ــ علام .. ماذا بك ؟ .. احدث لك مكروه ..

ــ لا ..

لمح الحيرة التي شملتها فأردف قائلا :

ــ تركت العمل في المحل ..

أسندت صفية ظهرها الى الحائط .. شعرت بألم في صدرها .. وكأن سكينا قدُ شطرته الى نصفين.. او منجلا يجتث كل ما في قلبها من امان واطمئنان وسعادة وهناء .. قالت في صوت خفيض تمنت لو لم يسمعه:

ــ لم فعلت ذلك ..

كانت كلماتها تلك ايذانا بغضبة من علام .. فصاح متضايقا :

ــ لانه رجل استغلالي جبان .. قلبه مملوء بالجشع.. يريد تخفيض اجري ريالا .. الا يكفيه أني أعمل أكثر من عشر ساعات في اليوم .. كأني ثور يدور في ساقية ..

قالت وهي تضع الطعام امامه :

ــ لقمة العيش مرة يا علام ..

قال محاولا تهدئة نفسه :

ــ انا اعرف ذلك .. لم اقل شيئا .. لكن الله لا يرضى هذا .. ولا ترضاه اي نفس حرة .. انه استعباد ..

تمتمت صفية :

ــ الله ..

ثم أردفت في استكانة واستسلام لمصير مجهول وخشوع :

ــ الله لا يعرفه سوانا .. نحن الفقراء .. لا تبتئس .. لن ينسانا الله ..

اخذ علام ينظر الى زوجته وقد اكتسى وجهها الابيض بسحابة من الحمرة القاتمة الحزينة ، وبدت له عيناها مملوءتين باللوم والعتاب.. منذ تزوجا وهما ينعمان بحياة هنية رغدة .. انجبا خلالها رضا ، حكمت .. كان كل ما يهتم به هو اسعاد زوجته وابنتيه ، وان يصونهما من تقلبات الدهر والايام .. كان حب زوجته يدفعه دوما الى الاهتمام بعمله والتفاني فيه .. كان مجهدا متعبا .. والتفكير يزيده اجهادا



جمعة محمد جمعة

★

وتعبا .. فنظر الى ابنته رضا النائمة في محاولة للانصراف بعقله عن التفكير فيما حدث .. قال :

ــ صحي رضا .. اشتريت لها تفاحا ..

ــ دعها نائمة ..

هم علام نصف واقف .. مرتكزا على ركبته اليمنى ، وهز رضا :

ــ رضا .. رضا .. قومي يا حبيبتي ..

نهضت رضا .. تقلبت فوق الفراش حتى حافته ثم ألقت بنفسها بين ذراعي ابيها الممدودتين لها .. قبلها وأجلسها فوق فخذه .. قدم لها تفاحة قائلا :

ــ كلي يا رضا .. كلي ياحبيبتي.

انصرف علام الى مداعبة رضا .. ومداعبة نعاسها .. أخذ يقطع بأسنانه من التفاحة قطعا صغيرة ويدسها لها في فمها .. وكانت رضا تحتضن في صدرها تفاحتين اهتزت ضاحكة عندما داعبها ابوها باصابعه تحت ابطها .. فتدحرجت احدى التفاحتين واختفت تحت السرير.. طلب علام من زوجته احضارها فأرجأت ذلك الى الصباح .. لم تكن صفية ترغب في عمل أي شيء سوى التفكير في الغد وما يكتنفه من ظلام ..

كانت تلوك الطعام في فمها صامتة شاردة .. وقد فقدت شهيتها له.. أخذت تجوس بذهنها خلال السنوات الماضية السعيدة التي عاشتها ، والحياة الهادئة التي نعمت بها ، ولم يكن يخطر ببالها قط ان هذه السعادة يمكن ان تضيع ..

اخرجها علام من شرودها وهو يمد اليها يده بثلاثة جنيهات قائلا :

ــ صرفي امور البيت بهذا المبلغ حتى اجد عملا ..

وتوالت الايام .. ثم الشهور .. وعلام لا يألو جهدا في البحث عن عمل ، وذات صباح توقف قرب الباب لحظة .. ودارت في ذهنه الايام التي قضاها يبحث عن عمل دون جدوى .. الابواب كلها تكاد تكون مغلقة في وجهه.. اشار عليه احد اقاربه بأن يقدم طلبا الى مصلحة البلدية .. وقدم الطلب وفي انتظار العمل .. برقت في ذهنه فكرة .. فعاد الى زوجه مسرعا .. امسك بها من ذراعيها قائلا في سرور :

ــ وجدت عملا .. وجدت عملا يا صفية .. سأشتغل حمالا في سوق الخضر .. احمل الاقفاص الى خارج السوق حتى محطة الترام بقرشين او ثلاثة قروش .. يا فرج الله ..

ودعته صفية متطلعة الى السماء .. داعية له بالتوفيق ..

اعتاد علام ان يعود ظهرا .. بعد أن تخف حدة العمل في السوق .. فيجلس الى زوجته ملقيا برأسه فوق فخذيها .. يقص عليها عمل يومه.. وهي تدلك له كتفيه المتورمتين ..

ـ لو عملت ساعة اخرى .. لحصلت على عشرين قرشا اخرى.. لكني تعبت ..

كانت صفية تدرك مدى الارهاق الذي يعانيه زوجها في عمله الجديد .. وقد زادت الاعباء وزاد اطفالها طفلين آخرين .. فكرت كثيرا في مساعدته .. ولكن ما الوسيلة ؟ وكيف تحصل على عمل ؟..اقترحت اكثر من مرة ان تعمل كخادمة او غسالة او تمتهن التمريض في احد المستشفيات .. لكنه رفض بشدة قائلا :

ـ طالما انا على قيد الحياة لاتفكري أبدا في اي عمل يمتهن كرامتك .. انني لم أمت بعد يا صفية .. ثم من يرعى الاولاد .. انهم محتاجون اليك ..

لكن كيف لها أن تجلس وما يكسبه زوجها لا يكاد يكفي القوت الضروري .. برقت في ذهنها فكرة .. لماذا لا تذهب مع زوجها صباحا الى السوق ، وتشتري بعض الخضر وتعود لتبيعها لسكان الحارة .. واستحسنت الفكرة .. وعرضتها عليه .. وافق متضايقا متبرما .. وسرعان ما وضعت الفكرة موضع التنفيذ .. كانت تترك اولادها في رعاية اختهم الكبرى رضا ، وتخرج مع زوجها مع تباشير الصباح الى السوق .. يشتري لها الخضروات، تحملها فوق راسها عائدة الى حيث تفترشها فوق بعض الاقفاص امام البيت ، تلتف حولها النسوة مشتريات ..

ذات صباح عادت صفية من السوق .. وقفت امام البيت محدقة في ذهول .. تنظر الى جارتها ام خليل .. وكانت تجلس امام بيتها تفترش بعض الاقفاص وفوقها بعض الخضروات .. طفرت الدموع من عيني صفية وهي تتمتم لنفسها :

« لماذا يا ام خليل تعرضين نفسك لهذه المهانة »..

لم تكن ام خليل في حاجة الى احتراف هذا العمل .. فلديها منزل يدر عليها مبلغا محترما .. وليس لديها اولاد .. لكنه الجشع .. واكتناز الاموال ..

عاد علام يزف اليها بشرى .. هونت عليها كل ما اعتمل في قلبها من احزان بسبب مشاركة ام خليل لها في رزقها ورزق اولادها .. قال علام :

ـ لا تهتمي .. سأذهب غدا للكشف الطبي .. وبعدها التحق بالعمل ..

انبسطت اسارير صفية ، وتورد وجهها بالدم .. فبدت كما كانت في سالف عهدها ..جميلة ..رقيقة .. قالت وشفتاها تفتران عن بسمة نابعة من قلبها :

ـ صحيح يا علام .. ربنا يوفقك ..

ـ صحيح يا صفية .. غدا تعودين الى بيتك ، وتعيشين معززة مكرمة ..

ـ طالما انت معي فانا معززة مكرمة .. ليس لي في الدنيا غيرك ..

كانت فرحتها بقرب عثورها على السعادة والهناء .. تفوق فرحة ابنها بالتفاحة التي عثر عليها .. ولم تدم هذه الفرحة كثيرا .. اذ بعدها بأيام بدت أعراض الاعتلال والمرض تبدو على زوجها .. فانقبض قلبها .. وانطفات الشمعة التي اضاءت في نفسها .. وعادت الى حزنها .. وشرودها .. وقد بدت لها الحياة تسير بها من سيء الى اسوأ .. فزوجها يعمل يوما ويرقد متعبا أيام .. والوظيفة تبدو بعيدة كحلم لن يتحقق ابدا ..

خرج علام في الصباح ذاهبا الى مصلحة البلدية للسؤال عن مصير الوظيفة .. وتركها تطحن الهم والحزن بين ضروسها ..

افاقت صفية من غفواتها على صوت بكاء ابنها احمد بعد أن ضربته رضا .. قالت يائسة :

ـ ماذا حدث لاخيك ..؟

ـ اخذت منه التفاحة والقيتها بعيدا فشتمني وضربني.. فضربته.

ـ دعيها له ..

شردت وهي مفتوحة العينين.. وتراءت لها السنوات وكأنها دهور.. وعلام يكد ويكدح .. يتعافى ويمرض .. وقد زاد عدد الاسرة ثلاثة افواه اخرى تطلب الطعام .. والغذاء والملبس والمأوى .. وكان دخل الاسرة قليلا .. يكاد بالكاد يكفي ضرورات الحياة من طعام ومأوى .. وبدأ الفقر ينشب اظافره اللعينة في صدر الاب .. كانت افواه ابنائه تدفعه الى مقاومة المرض .. وتحديه .. والعمل الدائب المستمر .. نظرت الى آخر الحارة.. شدت قامة زوجها المديدة ابصارها ، وقد دخل الى الحارة.. يمشي خطوات بطيئة .. وقد بدا لها متهالكا .. وكأنه يحمل اثقالا فوق كتفيه .. شعرت بانقباض قلبها .. فبسملت وتوسلت الى السماء ببعض الدعاء.

جلس علام الى جوارها، وسقطت دموعه رغما عنه .. خمنت صفية بضياع الوظيفة في المصلحة .. تهون عليه الامر :

ـ لا تهتم بشيء .. سنبحث عن عمل في مصلحة اخرى .. ها نحن نعيش والحمد لله يا علام .. الخير كثير ..

اخذ علام يتجول بنظراته في وجهها .. وفي رأسه تدور الافكار السوداء كلها .. الموت يعربد في صدره .. ويهدد ذلك الوجه الرقيق، وهذه النفس الطيبة الخيرة .. قال في نفسه وكأنه يسألها :

ـ كيف تعيشين من بعدي ؟

واجهش بالبكاء .. فانتابته نوبة حادة من السعال .. ظل يسعل حتى اندفع الدم من فمه .. صرخت صفية وهي تخفي رأسه في صدرها مستغيثة بالجيران .. واولادها حولها يبكون ..

القاهرة **جمعة محمد جمعة**

مكتبة الاديب



الدوامة

تأليف غبريال وهبة ـ ٢٠٠ صفحة ـ القصة الفائزة بجائزة نادي القصة ١٩٦٦/١٩٦٧ ـ منشورات الهيئة المصرية العامة للتاليف والنشر ـ المطبعة الثقافية بالقاهرة

رواية الدوامة للاستاذ غبريال وهبة من الروايات الممتعة الشائقة التي تضمنت أحداثا مثيرة ، وشخصيات متباينة في المزاج والخلق ، تمكن مؤلفها من رسم طبائعها رسما بديعا من خلال احداث هذه الرواية .

وفي اعماقها نكتشف كم يدين هذا الروائي الشاب بقيمتين غاليتين للانسان هما قيمة الشرف ، وقيمة المحبة . فنحن في الرواية ، نلتقي بالباحث الطيب ، صالح خليل الذي يعيش مع زوجته الجميلة آمال ، وابنته الصغيرة ميرفت ، وسميرة المربية في طمانينة ، كما يعيش في معهد الابحاث الكيماوية الطبية بحلوان ، رئيسا لقسم النظائر المشعة وحوله تلاميذه وتلميذاته الاكفاء ، وعلى رأسهم الدكتورة افتخار الالوسي العراقية وهي من أنبه تلاميذه ، واقدرهم على البحث في تعرف تأثير الاشعاعات على الحيوان والانسان .

وفي أثناء انهماكه في العمل دق جرس التليفون معلنا ان زوجته قد اصيبت في حادث سيارة ، فيهرع مع الطبيبة الشابة الى المستشفى ، ويجد زوجته بين الحياة والموت ، وما يكاد يدخل غرفتها ، حتى تصدمه باعتراف رهيب يزلزل كيانه .

ـ لقد أدركت الآن في هذه الساعات التي امضيتها هنا انني لم أعطك شيئا ..

ـ بل ، أعطيتني كل شيء يا آمال .

ـ كلا ! ليس لك .. وانما لشخص آخر يا صالح .

ـ أنت تتكلمين بتأثير الحمى ..

ـ كلا !.. كلا !.. كنت تعاملني برفق ولين ، ولم اكن جديرة بذلك ، دعني أريح ضميري ، لم أكن أحبك ، كنت أقوم فقط بواجباتي كربة منزل ، ولم أكن اما كما يجب ان اكون ، كنت طوال الوقت احب شخصا آخر .. (ص ٢٢) .

ـ ان الرجل الذي أحبه كنت أركب معه سيارته عائدين من القناطر عندما وقع الحادث ، كان مسرعا فصدم شرطيا ، وعندما اختل توازن السيادة في يده قفز منها ، ولم اشعر بعدها بشيء حتى وجدت نفسي راقدة هنا .. فاصفح عني !

هذه الصدمة المزلزلة التي أصابت هذا العالم ، أثرت في نفسه تأثيرا عميقا ، فانقبض صدره ، واعتل مزاجه ، وخيم الوجوم على وجهه ، فاصبح شارد اللب ، زائغ النظرات ، مهملا في مظهره كما يقول المؤلف (ص ٤١) وجعلته يسيء معاملته للباحثين الشبان معه ، ومن بينهم الطبيبة افتخار ، بل جعلته يفقد كل ثقته في النساء حتى قال مرة لها :

ـ من نكد الدنيا ان يعمل رجل مع امراة .

مما جعلها يوما تقدم استقالتها ، ثم تعود لردها اشفاقا عليه ، لانها تعرف محنته .

وزاد ألمه عندما وجد مربية ابنته تقسو على صغيرته ميرفت ، فتضربها بالعصا ، وتؤنبها على بعض اقوالها لابيها عنها ، لدرجة ان الصغيرة تمكنت من الهرب من المنزل في غيبة المربية ، وذهبت الى حلوان شاكية لابيها ، وفي فناء المعهد ، كان العمال يقيمون خلية لاشعاع جاما وهو اول مفاعل ذري في الوطن العربي ، فاصابها حجر من احجار البناء ، فاصيب رأسها بارتجاج في المخ ، كما أصيبت ساقها بخلع ، ضاعفت من اوصاب الرجل .

ولم يجد مهربا من هذه الاوصاب الا في العمل الدائب ، وفي اخلاص الطبيبة الشابة له ، وقيامها بعلاج الصغيرة .

ومع هذا فلم ترحمه الاقدار ، اذ ابتلى بوجود المربية التي كانت تقسو على ابنته ، وتسببت في اعطائها قرصا من أقراص الفاليوم ١٠ اذ وضعت القرص في زجاجة اقراص اخرى مهدئة ، كانت تستعملها الطبيبة الشابة فاحدث لها ذلك تسمما .

لقد فعلت المربية ذلك ، للايقاع بين العالم الباحث ، وبين الطبيبة الشابة ، التي كانت تغار منها ، وتخشى ان يتزوجها العالم دونها . وكم فعلت هذه المربية الالاعيب والحيل قبل ذلك لكي تخرج هذه الطبيبة الشابة من حياة الرجل ، حتى حملتها هذه الغيرة المجنونة الى ارتكاب فعلتها الاثيمة .

ولما كشف امرها ، لم تجد سبيلا الا الانتحار بأخذ الاقراص التي قضت عليها .

وهذه الاحداث المتتالية ، خيانة الزوجة ، وقسوة المربية على ابنته ، وموت المربية ، اوقعته في دوامة رهيبة من القلق ، ولكنه مع ذلك تمكن من الافلات منها ، بوساطة اخلاص الطبيبة الشابة ، وحبها له .

وتمكن بقوة الحب الخروج من هذه الدوامة ، والزواج بهذه الطبيبة الذكية القديرة المخلصة .

وقد استطاع المؤلف بعد ان بسط آلام الرجل ، وتغير حاله ، ان يعيد له الثقة بنفسه ، فوجد في جرعة الحب ، دواءه وخلاصه ، وفي هذه القيمة العظيمة التي يعتنقها المؤلف ، وضع لنا سر الشفاء الروحي من هموم الحياة ومتاعبها .

ويبدو لي ان المؤلف لا يعتنق الحب ، ايمانا فقط ، بل يعتنقه ضرورة واجبة من أجل التقدم في الحياة ، وسعادة العائشين بها ، وهذه القيمة الغالية ، هي التي توجهت اليها روايته كلها .

والى هذه القيمة ، توجه فكر المؤلف الى قيمة العمل من أجل الانسان ، العمل القائم على العلم . ولهذا نراه يحفل في صفحات كثيرة ، بالنظائر المشعة ، التي تعود بالخير على زمرة من المرضى البائسين الذين استعصى علاجهم ، فالفوسفور المشع لعلاج سرطان الدم ، واليود المشع لعلاج سرطان الغدة الدرقية كما يقول المؤلف (ص ١٣) ، والسيزيوم المشع ١٣٧ يستخدم لعلاج الاورام الخبيثة (ص ٦١) ، والحديد المشع ٥٩ يستخدم في دراسة امراض الدم ، والكروم المشع لاقتفاء اثر كرات الدم الحمراء ، وما يحدث لها من تطورات .

وعلى هذا المنوال أتانا المؤلف بمعلومات غريبة علينا ، يقوم بها الباحثون من اجل سعادة البشرية .

وقد أتى في هذه الرواية بنموذج من نماذج الباحثين المتازين ممن أحبوا العمل في هذا الميدان ، وتفانوا في البحث التجريبي ، وعلى رأس هؤلاء الباحثين افتخار الالوسي العراقية التي جاءت من العراق الى القاهرة بعد ان نالت بكالوريوس الطب ، للدراسة في هذا الحقل ، فأبان عن فتاة ، مثالية ، تجمع الى حب البحث ، الذكاء ،

والطيبة والوداعة ، انسانة كاملة ، واست استاذها الدكتور صالح في محنته ، وحدبت حدبا حميما على ابنته ، فاغرمت البنت بها غراما شديدا ، ووقفت الى جانبه تدافع عنه ، وتدفع ألسنة الشائنين ، وقد احتملت خشونته في مأساته ، وعندما ثارت ثائرتها لمعاملته ، همت بالاستقالة ، ولكنها راجعت نفسها ، وتمتمت قائلة :

ـ انني لا أرغب في الاستقالة على الاطلاق .. لا يمكنني ان أتركه وحيدا ، ان الناس تقذفه بالحجارة ، ولا احد يعلم انه اصيب بصخرة عاتية . (ص ٤٦) .

والى هذه النبالة ، فقد كانت أنشط الباحثين في المعهد ، وكانت تختلف كثيرا الى المكتبة ، وقد كشف المؤلف عن غرام هذه الفتاة بالبحث والمعرفة في صفحات الرواية ، وها هو ذا يذكر في عشر صفحات حديثا جرى بينها وبين مدير المعهد ، عندما لاقاها في المكتبة اثناء مروره :

ـ ما شاء الله ، ما شاء الله ، ما هذا النشاط الجم ، ليت الجميع يشتغلون مثلك هكذا ، قواك الله ، فيم تقرأين ؟

ـ أقرأ عن كمية الاشعاع القاتلة بالنسبة للانسان .

ـ بالنسبة للانسان ؟! .. هذا مستحيل !.. أين اجريت مثل تلك التجارب .. ربما على بعض المحكوم عليهم بالاعدام ؟!

ـ بل على سكان مدينتين كبيرتين ، ولم يكن ذلك تجارب بالمعنى العلمي .. والامر لا يتعدى ما هو مكتوب استنتاجا من نتائج الاصابات التي نجمت عن القنبلتين الذريتين اللتين القيتا على هيروشيما وناجازاكي .

ـ انها اشنع جريمة في حق البشرية .

وبعد ان تحدثا في تأثير الاشعاعات على الثدييات وبعض الحيوانات، طلبت اليه قرودا لمعرفة تأثير الاشعاعات عليها ، لانها اقرب الى الانسان ، فقال لها :

ـ ان بيت الحيوان في خدمتك .

فقالت :

ـ انه ليس به الا قرد حبشي واحد تجري عليه تجارب اخرى .

فطلب اليها ان تكتب طلبا للدكتور صالح رئيس القسم .

ولما توجهت الى الدكتور صالح قال لها :

ـ لا داعي للاسراف ، يكفي اجراء التجارب على الفيران والارانب.

فقالت له :

ـ لقد عرضت مختلف الحيوانات الثديية للاشعة السينية ، فوجدت ان الجرعة القاتلة للوطواط تبلغ ١٥٠٠٠ رونتجن ، ويليه الارنب ، ثم الفار ، ثم الماعز ، ثم الكلب ، وانني أريد معرفة أثرها في القرود .

ـ قرود !.. ألا يكفي قرد واحد ؟!

ـ لا ، لان أثر الجرعة يختلف في الفصيلة الواحدة ، في مقاومة الاشعاع .

فوافق على شراء ثلاثين قردا . (ص ١٢٩) .

ومن هذه المحاورة بين المدير واستاذ القسم ، يتضح مبلغ اهتمام هذه الفتاة ببحوثها وتوقها الى ان تكون شاملة ودقيقة .

ولم تفكر الفتاة وهي في دوامة العمل في الحب ، ولكنها بعد ان عاشرت الدكتور صالح مدة طويلة ، شعرت بميل اليه ، ثم دب في قلبها حبه ، أحبته لمقدرته العلمية ، واخذ هذا الحب ينمو في بطء وتدرج ، حتى ازدهر ثم انتهى بالزواج . وهكذا حب المفكرين العاملين، لا يأتي كضربة الصاعقة كما يقولون ، ولكنه ينمو ويتدرج ، ويشعله الذكاء والموهبة .

وقد وفق المؤلف في السير في تبيان هذا التدرج لدى الفتاة ولدى الاستاذ صالح ، حتى سألها الاستاذ في الصفحة قبل الاخيرة ١٩٧ .

الاديب



لا يقبل الاشتراك الا عن سنة كاملة بدؤها شهر
يناير ، كانون الثاني
تدفع قيمة الاشتراك مقدما وهي :

الاشتراك العادي :

في لبنان وسورية : ١٨ ليرة لبنانية

للمؤسسات والشركات والدوائر الرسمية : ١٠٠ ل. ل.

في الخارج العربي : ٤٠ ل.ل. او ما يعادلها بالبريد العادي
٨٠ ل.ل. او ما يعادلها بالبريد الجوي

في سائر الاقطار : ٢٠ دولارا بالبريد العادي
٤٠ دولارا بالبريد الجوي

اشتراك الانصار :

في لبنان وسورية : ٥٠ ل. ل. كحد ادنى
في الخارج : ٨٠ ل. ل. او ٤٠ دولارا كحد ادنى

المقالات التي ترسل الى الاديب ، لا ترد
الى اصحابها سواء نشرت ام لم تنشر
للاعلان تراجع ادارة المجلة

الادارة ٢٢٣٨١٩ Dir : 223819
المنزل ٢٢٥١٣٩ Dle : 225139

توجه جميع المراسلات الى العنوان التالي :
مجلة الاديب ـ صندوق البريد رقم ٨٧٨
بيروت ـ لبنان

صاحب المجلة ورئيس تحريرها ومديرها المسؤول
البير اديب

– هل توافقين على ان تشاركيني الحياة مع ميرفت ؟
– نعم اذا كنت تكن لي بعض الحب .
ثم جذب صالح افتخار اليه وطبع على شفتيها اول قبلة وهو يهمس :
– وأنا أيضا أحبك يا افتخار ، لانك تحبينني . (ص ١٩٨) .

وبهذه الذروة الموفقة اختتم المؤلف روايته كاشفا عن خلق هذه الفتاة المثالية في عملها وفي حبها .

ويبرز لنا من خلال دراسة هاتين الشخصيتين ، شخصية صالح ، وشخصية افتخار ، مدى ما يدين به المؤلف من ايمان بقوة الحب ، وايمان بعظمة العلم . فهو مؤلف أخلاقي نادر المثال ، رقيق مع ذوي القيم العالية ، عنيف على ذوي القيم النازلة ، ولهذا رأيناه عندما تناول شخصية آمال الزوجة المنحرفة ، يقضي عليها بالموت . وعندما يتناول الفتاة الحاقدة الغيور يقضي عليها بالانتحار ، لانه يدين بحب الشرف والطهارة الزوجية .

وأحسب انه في تناوله للزوجة ، لم يوفق في الكشف عن سبب انحرافها ، وقد كنت اود ان يلقي على هذه الناحية الاضواء ، فكل ما ذكره عن هذه الزوجة ، انها كانت تحب الخروج من المنزل ، وانها كانت جميلة ذات وجه فاتن وشعر أصفر ، وعنق من العاج ، وانها كانت تحب المداعبة والمغازلة ، وانها هامت بشاب ذي شعر اشقر وشارب اصفر ، وانها وجدت معه في سيارة ، قتلت فيها . وليست هذه الفكرات ذوات جدوى في تبيان انحراف هذه الزوجة ، بل كنا نريد مزيدا من النور لبيان سبب برمها من زوجها ، وما اذا كان ذلك راجعا الى اختلاف مزاج كلا منهما مما حفر برزخا بينهما ، أم كان راجعا الى تركها ، وانغماسه في ابحاثه ، أم أنها كانت من ذوي المزاج المتقلب ، وما الذي ربطها بهذا الشاب ، هل اعجبت بملاطفاته لها ، وتملقه لجمالها ؟ أم وجدت في لقائها به ، ذوبانا لضيقها من المنزل ؟ فمثل هذه الشخصية الهشة ، كنا نود ان يجري قلم المؤلف في وصفها ، ولكنه وقف منها موقف القاضي الجائر العبوس ، فحكم عليها بالقتل دون ابداء الاسباب !

وقد طاب لنا ما كتبه المؤلف عن المربية ، فقد كان في رسم شخصيتها موفقا كل التوفيق ، فقد أتى بشريحة من حياتها ، فذكر انها كانت مخطوبة لمدة هجرها لانه وجد امراة فاحشة الغنى ، وأتى على ذكر ما كانت توقعه على ابنة الدكتور صالح من ضرب لاتفه الاسباب ، وما كانت تضمره للدكتورة افتخار من حقد وكراهية ، وأبان كيف كانت الغيرة تأكل قلبها منها ، وما كانت تقوم به من حيل لامتلاك قلب الدكتور صالح للاقتران به ، حتى بلغت بها الغيرة من هذه الدكتورة انها كادت تقتل الطفلة الصغيرة للايقاع بها .

وبهذا قدم لنا شخصية عصابية شاذة ، سادية المزاج ، وساديتها لم تكن مظهرا من مظاهر حرمانها الجنسي ، بل تكشف عن أنها كانت انسانة تشعر بالنقص ، وتسعى الى السيادة بضرب الطفلة المسكينة .

وخلاصة القول فان الرواية ، قد بنيت بناء محكما ، ودبجت بأسلوب سلس متحرك ، وامتلأت بالصراع المنوع ، صراع الدكتور صالح النفسي ، وصراع المربية مع الدكتورة افتخار والطفلة الصغيرة ، وقد اضمرت فلسفة المؤلف ، وحبه للقيم الرفيعة ، وعلى راسها المحبة والعلم ، والاخلاص والشرف . كما تضمنت بعض الآراء الاجتماعية والقومية ، من مثل تكريس العلم لخدمة المجتمع ، والبحث في تأثير الاشعاعات على الانسان لحمايته من أخطارها وغيرها من الآراء .

واذا كنا قد أخذنا عليه تقصيره في رسم شخصية آمال الزوجة ، فذلك لا يغض من قيمة الرواية ، وتأميلنا وطيد في انه سوف يشق طريقه الروائي في احسان واتقان ، ويسرنا كل السرور ان نهنئه على هذه الرواية الناضجة .

القاهرة مصطفى عبد اللطيف السحرتي

من عبد الحميد الكاتب الى الكتاب والموظفين

تاليف عبد العزيز الرفاعي – ٩٦ صفحة – سلسلة المكتبة الصغيرة – شركة مطابع الجزيرة بالرياض

لقيت الرفاعي اول مرة في مؤتمر ادباء العرب التاسع المنعقد ببغداد عام ١٩٦٩ وكان آنذاك رئيسا للوفد السعودي في (لجنة التراث) وكنت رئيسا للوفد العراقي فيها . وتوطدت بيننا الصلة حين ظل يوافيني – على البعد – بحلقات من سلسلة « المكتبة الصغيرة » التي يصدرها . ومؤخرا وصلني آخر حلقات هذه السلسلة وعنوانه « من عبد الحميد الكاتب الى الكتاب والموظفين » .

وقد تضمن هذا الكتاب ترجمة طيبة لعبد الحميد الكاتب ثم نص رسالته الشهيرة الى الكتاب ، ونظرة تحليلية لها . وقد رأيت تعبيرا عن اهتمامي بالكتاب وكاتبه – ان انشر بعض الملاحظات التي عنت لي حول الموضوع .

اولا : قول المؤلف (ص ١٩) عن سالم بن عبد الله مولى هشام بن عبد الملك وكاتبه كان ختن عبد الحميد (لي زوج اخته) وهو ينقل في هذا عن « محمد كرد علي » غير صحيح . فالختن هنا والد الزوجة وليس زوج الاخت .

قال الاصمعي عن ابن الاعرابي الختن (بفتح الخاء والتاء) ابو امرأة الرجل واخو امرأته وكل من كان من قبل امرأته .

والذي يعزز ان (سالما) هو والد زوجة عبد الحميد النص الوارد في كتاب الكتاب وصفة الدواة والقلم وتصريفها لابي القاسم عبد الله بن عبد العزيز البغدادي النحوي الضرير مؤدب الخليفة المهتدي بالله العباسي (صحيفة ٧٢) وفيه : « وكان سالم قد ولد محمد بن عبد الحميد هذا من قبل امه » . اي ان سالما هو الجد الفاسد لمحمد بن عبد الحميد .

ثانيا : قال المؤلف في ص ٣٩ – ٤٠ : ويحدثنا ابن خلكان ان لعبد الحميد ولدا اسمه اسماعيل ، كان كاتبا ماهرا نبيلا معدودا في جملة الكتاب المشاهير ثم قال : بيد اننا لا نعرف شيئا عن اسماعيل هذا ، لا عن شهرته ولا عن آثاره . كما لم يتوصل المؤلف الى معرفة اولاد عبد الحميد . ويبدو ان نصوصا بالغة الاهمية قد فاتت الصديق الكريم منها : ما رواه البغدادي (ص ٦٨) عن اولاد عبد الحميد الثمانية ونصه : « وروى عن عبد الحميد بن يحيى انه خرج ذات يوم الى الديوان فرأى له ثمانية اولاد يحررون الكتب فسر بهم وقال :

اذا جرح الكتاب كانت دويهم قسيا واقلام الدوي لها نبلا »

وقد توصلنا الى معرفة بعض اولاده فمنهم :

١ – غالب : وبه كان يكنى .

٢ – يزيد : وقد جاء في كتاب الكتاب عنه ما نصه : رأيت رغبان الحمصي ، وهو آخذ بيد يزيد بن عبد الحميد بن يحيى ، وهو يومئذ غلام ، وقد رفع يزيد الى المهدي في ضياع لهم فوقع المهدي : يرد على ولد عبد الحميد كل ما افاده عبد الحميد في ايام مروان » فجعل رغبان يقول يا معشر الكتاب : « احفظوا عبد الحميد في ولده تحفظون في اولادكم » . فقاموا باجمعهم في أمره الى ان صار الى افضل محبته .

٣ – محمد بن عبد الحميد وقد مر ذكره .

٤ – اسماعيل : ومن بلاغته قوله وقد ذكر عنده الكتاب : « من اذا قرأ كتابه الناس توهموا انهم يحسنون مثله ، فاذا تعاطوا ذلك لم يقدروا عليه » .

وذكر عبد الحميد بن يحيى الكاتب يوما في مجلس فيه جماعة من الكتاب ، فقال اسماعيل ابنه وكان حاضرا فسالوه ان يصف ما عنده من المعرفة ببلاغته ليكون ذلك مأثورا عنه محفوظا منه فقال : « كان الكتاب قبل عبد الحميد بن يحيى حروفا حريدة ، متقطعة الاوصال عن معاني التاليف منقوصة القوى عن مذاهب المعاني ، غير مونقة للاسماع ،

ولا مستوعبة للحجج ، تدل على اعيان الاشياء دلالة ضعيفة وتخبر عن القلوب اخبارا غير كاف ، وتؤدي اليها تأدية غير شافية . وكانت حظوظ الكتاب على قدر غنائهم ، وكان غناؤهم على اقدار هممهم في البلاغة ، دون ورود بحور الافهام ، وفتح عيون ينابيع الكلام على رسم من التشقيق والتأليف والتشبيه والامثال فقد كان عليه الشعراء ، ثم تلاهم في مثله الخطباء فلما افضت الامور في ذلك الى عبد الحميد ، راض صعاب الكلام فسهلها ، وركب ذلك فامتهنها ثم وصله توصيلا اظهر زينته وألفه تأليفا ألبسه حليته ، واستنبط الرأي من خزائنه استنباطا قويا ، واستقصى المعاني من وجوهها استقصاء شافيا ، وصرف الحجج وصنف الامور ، وفتق عنها اكمامها وهتك عن القلوب حجبها ، وقذف في الاسماع منافعها ، وانتظم كلام المتكلمين وخطب المتنطعين وشعر السالفين ومواعظ الواعظين فصير ذلك منهاجا فات فيه سبقه ، وبرز فيه مهله ، وذهب فيه شأوه ، وابان فيه فضله وثبتت فيه رئاسته ووجب به على اهل صناعته حقه وشكره ونالوا منه منزلة شرف كانوا عنها متضعين ، وركبوا به طريقة فضل كانوا عنها مقصرين ، فصارت لهم الوزارة ، وعندهم الكفاية ، ولهم فضائل الادب وصارت كتبه محكمة باقية دائمة نافعة ، يحتذي عليها الباقون ويمتثلها المتنطعون ، وينتهي اليها الامثلون ، ويعرف فضلها الاولون من اهل زمانه والآخرون ، فمن احسن منا معشر الكتاب فانما اتبع من عبد الحميد أثرا اليه ينسب احسانه . ومن قصر فغير متهم على الاجهاد والاحتياط ولا ملوم على التقصير عن مساواة فضله وبالله التوفيق » .

فنمى الكلام الى يحيى بن خالد البرمكي فاعجبه ، ووجه الى اسماعيل ، فاحضر ، وبين يديه مرفع عليه دفتر كبير ، فقال يا اسماعيل اتدري ما بين يدي ؟ قال : نعم مصحف . قال : لا ، ولكن رسائل ابيك ، فانا ما نلتمس شيئا نريد ان نؤيد به الملك الا وجدنا اباك قد سبقنا اليه » .

من النص المتقدم الذي فات المؤلف الفاضل ، يتضح لنا صواب ما ذهب اليه ابن خلكان حين قال ان اسماعيل بن عبد الحميد كان كاتبا ماهرا نبيلا معدودا في جملة الكتاب المشاهير .

ثالثا : واذا كانت رسالة عبد الحميد الى الكتاب ـ التي اعاد الصديق المؤلف نشرها ـ وكانت قد نشرت غير مرة قبل ذلك ـ رسالة معروفة مشهورة لها أثر ضخم في دنيا الكتاب والمترسلين . فان لعبد الحميد رسالة اخرى الى الكتاب غير معروفة على الاطلاق وقد اماطنا اللثام عنها عند نشرنا مؤخرا لكتاب « الكتاب وصفة الدواة والقلم وتصريفها » ، الذي مر ذكره ، وهي بدورها قد فاتت المؤلف الفاضل .

وهذه الرسالة قصيرة ، وكان قد كتبها الى صديقه خالد بن ربيعة الافريقي يصف الكتاب ونصها : « ان الكتاب قليل ، والمتسمون بالكتاب كثير والقلم معين على نفسه من اخذه ممن ادخل نفسه في الكتاب مصطبرا على ما ينوبه فيه من العفاف عن المطامع ، والتتبع للمعروف ، وترك التضجر بأهل الانقطاع وصبر على النوائب وحاول جر المنافع الى الصديق ، واظهر بشره وحسن قبوله ومعاملته من لا يعرف ، فهو الذي احتوى على الكتاب واحتوى الكتاب عليه » . وقال ايضا : « انتم معاشر الكتاب خيار الخيار ، وذوو الاخطار ، على ايديكم مجاري الخير والنعم . تقومون بحمل الآداب حتى تصير الى رشدها او غيها ليس فوقكم رغبة لذي مطلب ، فافضلكم الفاضل وخيركم الخير . ائمة مطاعة وساسة مهابة تشهدون ما غاب الناس عنه . اعيادكم مطراة ، وافنيتكم عامرة ، وخيركم منتظر ، وشركم مخوف ، من تحرك منكم فيه هوى ارتفعت به درجات الشرف ، ومن احتملتهم عليه زلت به قدمه ، فليست حال يبتغي بها كاتب من ربه منزلة ما ـ خلا الرئاسة ـ تعدل مكان الكاتب من غايته التي هو فيها ، اصول ان صال ولا انقد ان قال مقالا منه . فلتكن اخطاركم حيث وضعكم الله من عباده وفي بلاده . فانه لا اقبح من كاتب دق نظره ، وصغر خطره في المعروف ان يبيعه او يباع له فاجعلوا اسداء المعروف الى الناس تجاراتكم المربحة ان شاء الله » .

هذا النص الجديد الذي لم يقف عليه المؤلف الفاضل ، يضيف جديدا الى وصايا عبد الحميد الى الكتاب . وهو كذلك يكشف عن نهج جديد لدى عبد الحميد ، تفرد به ـ فيما نعلم ـ وهو كتابة رسائل النصح والارشاد لارباب مهنته .

رابعا : ورغم ايماني العميق بالوطن العربي الواحد ، لا فرق بين عراقه وشامه . وبالتالي فلا فرق في ان يكون عبد الحميد الكاتب عراقيا او شاميا . غير انني وجدت المصنف الصديق يرجح نسبة عبد الحميد الى الشام دونما مرجح . وللحقيقة العلمية اقول ان ابن خلكان المتوفي سنة ٦٨١ هـ قد نص على ان عبد الحميد (كان من اهل الانبار وسكن الرقة) وهو اقدم من ذكر ذلك وان ابن كثير المتوفي سنة ٧٧٤ هـ ذكر ان عبد الحميد من اهل قيسارية . فلا وجه لترجيح قول ابن كثير على قالة ابن خلكان رغم تقدم ابن خلكان زمنا ، اضافة لما اشتهر به من دقة على انني لا ادري لم استكثر المؤلف على العراقيين ان يكون عبد الحميد واحدا منهم . وجل امراء البيان على امتداد عصور العربية عراقيون بلا جدال .

فهل يستكثر على العراق الذي نبغ فيه من امراء البيان سهل بن هارون وعمرو بن مسعدة واحمد بن يوسف وابراهيم بن العباس الصولي ومحمد بن عبد الملك الزيات والجاحظ والتوحيدي ، ان يكون عبد الحميد من بين ابنائه ؟!

خامسا : وقد كنت اود لو ان المؤلف تتبع مختصرات عبد الحميد البليغة في شتى المظان ثم اضافها لكتابه القيم ، اذن لاسدى لادب الرجل يدا جلى .

ذلك ان الايام ما فتئت تكشف لنا من روائع عبد الحميد ما لم يقف عليها المرحوم محمد كرد علي في كتابه الشهير « امراء البيان » ولعل من هذه الروائع ما حفظه لنا التوحيدي في البصائر والذخائر و (المجلد الرابع ص ١٤٥ ـ ١٤٦) ونصه : قال عبد الحميد الكاتب : « نظرت في الامر الذي اعاتبك عليه والتمسه عندك ، اذا هو خفيف المحمل ، يسير المؤونة ، سواد انقاس في بياض قرطاس . تحية تهديها، وسلامة تخبر عنها ، فما اولاك بالتعهد لمؤونة خفيفة تؤدي بها حقا ، وتصل بها ودا » .

وبعد : فقد احببت ان يخلو كتاب المؤلف الفاضل من هنات يتجنبها التراثيون عند الاشارة الى المصادر . من ذلك الهامش رقم (١) في الصحيفة ٢٦ ونصه : الجزآن ١١ و١٢ من مجلة المجمع العلمي العربي ص ٣٩٨ . فهنا اغفل المصنف ذكر السنة التي صدر فيها الجزآن ، او ذكر رقم المجلد ، مما اوقع اللبس . ومثله ما ورد في هامش الصفحة ٣٩ حين اشار الى الصفحة ٣٩٦ من وفيات الاعيان دون ذكر الجزء .

ومثله ما ورد في الهامش رقم ٣ من الصحيفة ٤٠ حيث ذكر قولة لجرجي زيدان في كتابه « تاريخ آداب اللغة العربية » ، ولم يشر الى رقم الجزء ولا الصحيفة . على ان هذه الهنات هي من القلة بحيث

لا تستحق الذكر في مقابل الاحالات العلمية الكثيرة الصحيحة . وتحية للمؤلف الصديق ومودة .

بغداد — هلال ناجي

•

١ ـ قصة المتنبي

احمد الجندي ـ شعر ـ ١١٢ صفحة ـ منشورات وزارة الاعلام العراقية ـ سلسلة الشعر العربي الحديث ـ مطبعة الجمهورية بغداد

ابو الطيب احمد بن الحسين المتنبي علم من اعلام الشعر العربي اشغل اذهان ائمة اللغة والادب زمانا فالفت حوله الكتب والمصنفات ولكن بغير الاسلوب الذي طلع علينا به الاستاذ الشاعر احمد الجندي بديوانه الجديد « قصة المتنبي » الذي اصدرته مديرية الثقافة العامة بوزارة الاعلام العراقية في سلسلة الشعر العربي الحديث حيث يتناول حياة المتنبي من مولده في الكوفة سنة ٣٠٣ هـ لغاية مقتله على يد فاتك بن أبي جهل الاسدي مع ولده محسد وخادمه مفلح في دير العاقول شرقي بغداد في آخر رمضان من عام ٣٥٤ هـ باسلوب شعري رشيق وقد جمع الشاعر في ديوانه بين اصالة المؤرخ وبراعة الروائي وابداع الشاعر تبدأ القصة بصورة رقيقة للوليد :

مـر في خاطر الزمان وليد   عبقري السمات ، عال فريد
اسمـر الوجـه كالمساء جـلالا   اسود العين بائـن ممدود
رائع الصوت ان سمعت اليـه   خلت ان الكـلام منـه نشيد

ويتنقل المتنبي مع ابيه السقاء الى الشام فيتخرج على جماعة من العلماء الافذاذ ويقول الشعر في صباه فيتنقل بين المدن مادحا الامراء والاعيان ويعتقله لؤلؤ امير حمص نائب الاخشيد زمانا بسبب ادعائه النبوة كما يلفق الواشون ثم يطلق سراحه :

عجبا قال لـي صديقي بالامس   احقـا مـا قالـه الواشونا
أأنـا ادعـي النبـوة لا لا   أنـا حسبـي شعر تخطى القرونا

ويتصل الشاعر ببدر بن عمار فيمدحه ويقيم عنـده ثم يتصل بسيف الدولة بعدما طار صيته فيسمعه اعذب القصائد المليئة بالعاطفة والوجدان ويقيم في بلاطه من عام ٣٣٧ ـ ٣٤٦ هـ :

غير ان الحساد ليس يراعـون   حقـوق الموفقـين الكبـار
وفؤاد الحساد أقسى من الصخر   علـى كـل نابـغ جبـار

فحيكت حوله الدسائس وكثرت فيه الاقاويل وكان ما كان مـن حديث ابن خالويه ويودع المتنبي حلب الشهباء في طريقه الى مصر وفي قلبه شوق الى صاحب حلب . ويستقبله كافور بمصر فيمدحه الشاعر غير ان اقامته لم تدم طويلا بعدما خاب ظنه بالولاية :

يحكـم النـاس فيـه قـزم دميم   ويسوم البـلاد حكمـا غريبـا

ويصل بغداد ويفارقها الى أرجان فيمدح ابن العميد ويتوجه الى شيراز ليمدح عضد الدولة بن بويه ويحصل منـه على اموال وهدايـا ويستأذنه بالرجوع الى بغداد وفي هذه الرحلة يتعرض له فاتك فيفتك به في المكان الذي ذكرناه :

مـن لتلك الابيات ولت هبـاء   فـي سمـاء تنهـل بالاحزان
القوافـي علـى الثرى عاريات   شاحبات كالدمع فـي الاجفـان
والاغاريـد حولهـا باكيـات   شاعـر العالمـين رب البيـان

هذه هي « قصة المتنبي » التي قدمها للمكتبة العربيـة مشكورا الاستاذ الشاعر احمد الجندي وهي جهود مشكورة والقصة تتألف مـن الفي ومائة بيت .. حبذا لو وفقت وزارة الاعلام العراقية الى طبـع امثال هذا الديوان وهو خير الف مرة من طبـع كلام (عادي اسمـوه شعرا منثورا) وما هو بالنثر ولا بالشعر بل تحمل نفقات باهظة علـى حساب تجربة لم تتبلور بعد لدى الكثيرين في عالم الشعر الخالد .

٢ ـ شعر تأبط شرا

سلمان داود القرهغولي وجبار تعبان جاسم ـ دراسة وتحقيـق ـ ٢٢٤ صفحة ـ مطبعة الاداب في النجف الاشرف ـ الطبعة الاولى

شاعر جاهلي صعلوك عاصر عروة بن الورد والشنفري الازدي والسليك بن سلكة جمع شعره وحققه الاستاذان سلمان داود القرهغولي وجبار تعبان جاسم وساعدت وزارة الاعلام العراقية على نشره .

الشاعر هو تابط شرا واسمه ثابت بن جابر وكنيته ابو زهير امـا نسبه فينتهي الى عمرو بن قيس عيلان . وامه اميمة من قين وهي بطن من فهم التي ينتمي اليها ابنها ودار فيهم هذه على مقطع البرام قرب مكة ومنها مرة بن خليف الفهمي الشاعر الصعلوك .

وتابط شرا لقب علق بالشاعر فطغى على اسمه ولهذا اللقب اقوال اقربها انه كان يضع تحت ابطه سكينا او سيفا او جفير سهامه كمـا يتفق عليه الرواة وكان لصا مشهورا وفاتكا من فتاك الجاهلية الذين الفوا حياة العنف والمغامرة والخروج على قواعـد التقاليد والاعراف ولعل ذلك يعود الى ضآلة انساب هؤلاء في القبائل فاضطروا الى طلب الشهرة التي تفرض الاعتراف بوجودهم شأن عنترة بن شداد وغيـره تماما .

ومات الشاعر مقتولا على شاكلة اصحابه الذين عاصروه في ديـار هذيل بعد غزوة من غزواته .

يضم الديوان مقدمة عن حياته وشعره مع دراسة لاغراض هـذا الشعر الذي هو في اسلوب لا يختلف في شيء عن اساليب اهل زمانـه بصورة الجاهلية المحدودة المستوحاة من محيطه والتـي تصف حيـاة التشرد والسلب والنهب التي ألفها الصعاليك وهي لا تتعدى الفخـر ووصف الحرب واسلحتها الى جانب وصف الحيوان والرثاء .. ويفتخر الشاعر بشجاعته في الحروب فاذا حدثت حرب بين الصعاليك وبـين قبيلة اخرى فسيكون هو على رأس القافلة :

ولست ابيت الدهر الا على فتى   أسلبه او اذعـر السرب أجمعـا
ومن يضرب الابطال لا بـد انـه   سيلقى بهم من مصرع الموت مصرعا

وقال تابط شرا بعد ان قتل رجلا وعبده واخذ زوجته وابله وسار حتى نزل بصعدة بني عوف بن منهر ، ومن قصيدة يرثي بهـا صديقه الشنفري قوله :

فان تك نفس الشنفري حم يومها   وراح له ما كان منـه يحـاذر
فما كان بدعا ان يصاب فمثلـه   أصيب وحم المتنجون الفوادر
قضى نحبه مستكثرا مـن جميله   مقلا من الفحشاء والعرض وافـر
يفرج عنـه غمة الروع عزمـه   وصفراء مرنـان وابيض باتـر

وللغول تخيلات طريفة في شعره ولكنها تخيلات مردودة في منطـق العلم الحديث كما يذكر محاورات بينه وبين الجن .

وفي القسم المنسوب الى الشاعر مجموعة من المقطعات والابيات كما يجد القاريء القصيدة التي نسبت الـى شعراء مختلفين والتـي مطلعهـا :

ان بالشعب الـذي دون سلـع   لقتيـلا دمـه لا يطـل

ويلحقه ذيل وتخريجات اضافة الـى فهارس القوافي والاعلام .. وفي الوقت الذي أهنيء فيه المحققين الفاضلين علـى اغنائهما المكتبة العربية بهذا المجهود القيم فقد حز في نفسي نبأ وفاة الاستاذ جبار تعبان جاسم قبل ان يخرج هذا الديوان من المطبعة وارجو ان لا يكـون هذا الامر مثبطا لعزيمة الاستـاذ سلمان داود في دروب الجد فـي المستقبل .

العراق ـ الكوت — كاظم محمد حسين

معجم اكسفورد الانكليزي ـ العربي

صنعة الاستاذ دونياك

اول ما سأجابه به عند تقريظي لهذا المعجم الجديد هـو : هـل نحن بحاجة الى معجم انكليزي ـ عربي جديـد ، بعـد معجم « المورد » للاستاذ منير البعلبكي ، و « المنار » للاستاذ حسن الكرمي ، فضلا عن المعجم التقليدي المعروف للمرحـوم الياس انطون الياس ، ومعاجـم أخرى ؟

وبدون نبرة تردد او تلعثم اقول : نعم ، وليتنا نحصل على معجم جديد كل عام ، لنثبت للعالم ان لغتنا حية متطورة مـع تطور اللغات الحية الاخرى كالانكليزية مثلا ، اللغة التي تعتبر الاولـى في أرجـاء المعمورة اليوم .

والسؤال الآخر الذي ساقابل به هو : هل وفق المصنف دونيـاك في معجمه الجديد ؟ وهذا هو مدار الكلام وموضع الحديث .

لقد تصفحت المعجم فوجدته قد عني بمصطلحات وتعابير اللغـة الانكليزية الحديثة ، فالمصنف لا يعنى باللفظة كلفظة مدفونة في مقبـرة المعجمات ، بل ككائن حي ينبض بالحياة في تعابير تتراقص يوميا عـلى ملايين الشفاه التي برعت في صقل الالفاظ والتعابير ، سواء في قاعات الدرس والمحاضرات الجامعية او شاشة التلفزيون الملون وغير الملون او المذياع او الشاشة الفضية المجسمة او في احاديث النوادي ومسامرات الاسر .

ان نقل هذه الانعطافات الفكرية الجديدة ـ اذا صح التعبير ـ من كل مجالات الحياة البشرية سيمنح لغتنا عمقا تفكيريا ومعنويا جديدا .

وحبذا لو فعلنا العكس كل عـام فقدمنا قاموسا عربيـا انكليزيـا ينقل الوحدات الفكرية المبتدعة في العالم العربي الى جمهـرة الناطقين بالانكليزية ، ليطلعوا على اكتشافاتنا في مجاهل دنيا المعاني الجديدة ، فلا يكون الاسهام من جانب واحد ، بل على اساس اخذ وعطاء ، اذ لم يعد بمقدورنا ان نبقى طفيليين على مائدة الحضارة ، بل ينبغي لنا في الاقل ان نسهم من الناحية اللغوية ، ولا سيما مـن ناحية علم دراسة المعاني Semantics بطريق تطوير معاجمنا وتوسيع نطاقها عاما بعـد عـام .

لقد استطاع الاستاذ دونياك ، بعدمـا يقارب العشر سنوات ان يصدر « معجم اكسفورد الانكليزي ـ العربي للاستعمالات الشائعـة » بـ ١٣٩٢ صفحة ، بعد جهود بذلهـا المستشرقون المرحوم آربـري وبيستون وكوبر والبروفيسور جودفري رولز درايفر وماكملان ونيكول وثاكر ، ويبدو ان محاولات هؤلاء لم تتعد حدود الدعوة الـى الفكرة ، والتشجيع على اخراجها الى حيز الوجود .

وقد كتب القسم العربي من المعجم بخط النسخ ، واضطلع بكتابة الالف صفحة الاولى المرحوم المستر سبيني Spinney ثم حالت عوائق المرض دون اتمام العمل ، فاتمه الدكتور فؤاد مجلي .

ورغم العناية المبذولة في الخط ، فان عدم التناسب في اجزائـه احيانا واضح جلي ، الا انه ليس مما يؤبه له ، ومن المتوقع ان تضطلع مطبعة عربية قامت في لندن مؤخرا باخراج الطبعات القادمة .

وفي مقابلة دامت ساعتين مع الاستاذ دونياك علمت انه حاول جاهدا ان يتلافى في قاموسه الجديد نقاط الضعف في القواميس المتداولـة ، واهمها العناية بالشواهد التي تحدد معنى الالفاظ تحديـدا دقيقا ، وتمييز استعمال بعض الكلمات وصفا للاشخاص تارة وللاشياء اخرى ، والاشارة الى قيمة اللفظة الاجتماعية ومـدى تداولها عنـد مختلف الطبقات ، وما اذا كان استعمالها مجازيا بليغا ام سوقيا دارجا ، ولم يفته ان يشير الى ما يقابلها من تعابير عامية عراقية او سورية او مصرية او مغربية الخ ...

ولا ادري ما اذا كان قد راجـع معجم الالفاظ العامية العراقيـة الذي صدر في واشنطن ، ولعله فعل ذلك ، غير اني لـم اجد اشارة اليه ، وكنت اود ان يكون تشكيل الالفاظ العامية مضبوطا ، فقد ورد مقابل كلمة « رز » مثلا « تمن » (اللفظة العامية البغدادية) والصواب بكسر التاء لا بضمها .

واعتقد جازما ان بيان مستويات الالفاظ مهم من وجهة نظر طلاب الاستشراق ، فقد يخطىء الطالب الاجنبي في ترجمته لبعض النصوص فيضع اللفظة العامية الى جنب التعبير الجاهلي ، فتبدو الجملة مثيرة للضحك والاشفاق !

وقد ادخل معجم اكسفورد ، تمشيا مع التطور الحديث ، مبـدأ اسقاط الفاظ انكليزية بطل استعمالها وادخال اخرى استنبطت حديثا ، وذكر الفاظ قديمة اكتسبت معنى عصريا جديـدا ، فمعجم اكسفورد معجم لآخر ما تلبورت عنه اللغتان الانكليزية والعربية ، وليس معنـى هذا انه معجم للالفاظ الدارجة ، فان هذه لم تتغلغل فيه الا بقـدر معقول ، ومن مجموعة منتقاة ، وهذه هي الخطة الحصيفة للعمل عـلى انماء اللغات بطريق تطوير المعاجم .

والحق انني عثرت في هذا المعجم على الفاظ وتعابير حديثة لـم اجدها في المعجمات الانكليزية ـ العربية الاخرى ، ولعلها ستظهر فـي طبعاتها القادمة ... فكل شيء يجب ان ينمو ويتطور حتى المعجمات !

وقد انصبت عناية خاصة في هذا المعجم على الافعال التي تتباين معانيها بتباين حروف الجر التي تلحقها ، مع استعمالها لهـا في جمل شائعة .

ويضم المعجم عشرين الف لفظة رئيسية ، مع وضع بعض الالفاظ بين هلالين والتعبير عنهـا بانهـا « مُدهنـات سيـاق الكـلام » Contextual Lubricants ، كما ان ظلال المعاني المشتقة مـن الجذر الاصلي للكلمة قد اشير اليها بارقام متسلسلة ، فكلما علا الرقم ازداد بعد الاشتقاق عن المعنى الجذري ، وعند عـدم العثور على مـا يقابل اللفظة الانكليزية اختير افضل كلمة عامية مع الاشارة الى البلد العربي الذي اخذت عنه ، وهذا بطبيعة الحال اجراء وقتي الى ان تجد المجامع اللغوية العربية ما يعوض عنها ويقوم مقامهـا ، والمهم ، كمـا المعنا ، مراعاة « الطبقية » في الكلمات ، اذا جاز التعبير ، فـلا يعبر مثلا عن لفظة يستعملها مثقفو الانكليـز بلفظة يستعملها عوام البـلاد العربية ، فان لكل طبقة وحرفة وجيل الفاظها وتعابيرها ، ولا بد مـن تساوق ذلك في تصنيف المعجمات .

ولم يفت الاستاذ دونياك الاشارة الى ما اذا كان استعمال اللفظة المعينة مجازيا او حرفيا ، فصيحا او دارجا ، انكليزيا او اميركيا .

وكلي رجاء ان يعاد طبع هذا المعجم بين فترة واخرى حسب نمـو الانكليزية والعربية معا ، واذا كانت عندي مؤاخذات عليه يمكن تلافيها في الطبعات القادمة فتتلخص في ضرورة العناية بطبـع القسم العربي بحروف الطباعة المعروفة بدل الاستنساخ اليدوي ، واضافـة الرسم الصوتي للكلمة ، على نحو ما فعـل الاستاذ البعلبكي في « المورد » ، ومحاولة وضع التواريخ ـ حتى وان كانت بصورة تقريبيـة في بعض الاحيان ـ ازاء الالفاظ والتعابير ، ليكون ذلك بداية ظهور « المعجمات المؤرخة » في العربية ، بعد ان فقد المعجم المؤرخ للمرحوم فيشر اثنـاء الحرب العالمية الثانية بعد ان قضى في تصنيفه قرابة نصف قرن ، وقيل انه فقد بعد ان نجح في نقله الى مصر بغية طبعه هناك ، فمـات الرجل كمدا .

على كل حال ، فان اكسفورد ام المعجمـات التاريخية ، وخيـر شاهد على ذلك معجم اكسفورد الانكليزي المشهور المستند على الاسس التاريخية ، ولعل الاستاذ دونياك فاعل ذلك في الطبعات القادمة خدمة للعرب في بحوثهم المعجمية .

وبعد ، فبمقدور القائمين بالامر في مطبعـة جامعة اكسفورد ان يضعوا امامنا المعجم الجديد ويقولوا : « هذه هي اللغة الانكليزية كما نكتب ونتحدث بها اليوم ... في الثلث الاخير من القرن العشرين !! »

لنـدن

صفاء خلوصي